

كلية التربية الاساسية
الجامعة المستنصرية
قسم الارشاد النفسي والتوجيه التربوي
المرحلة : الاولى - الدراسة / الصباحية - المسائية

محاضرات عن دراسات في المجتمع العراقي

إعداد
د. زينب هاشم

٢٠١٤ م

١٤٣٥ هـ

الفصل الاول

المجتمع ، مفهومه ، ومكوناته

عرف المجتمع بأنه مجموعة من الافراد تقطن على بقعة جغرافية محددة ومعترف بها وتتمسك بمجموعة من المبادئ والمقاييس والقيم والروابط الاجتماعية والاهداف المشتركة أساسها اللغة والمصير المشترك الواحد.

مكونات المجتمع

الفرد: الفرد لا يعتبر عنصراً اجتماعياً ولا قيمة لقوته الطبيعية لأن القوة الاجتماعية مستمدة من تضامن الافراد ومشاركتهم في العمل وتوزيع الوظائف بينهم.

الاسرة: هي أول خلية في التركيب الجمعي وهي أبسط وسط يتحقق فيه مظاهر الحياة الاجتماعية من التفاعلات الوجدانية واختلاف الوظائف وتنوع الاعمال.

المجتمع: هو وحدة حية ومركب معقد أهم مظاهره مبدأ التعاون والتضامن وهذا المبدأ يسمى تقسيم العمل وتوزيع الوظائف الاجتماعية.

من هذا المنطلق نستطيع أن نعرف المجتمع العراقي بأنه شبكة او نسيج العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين الافراد وتهدف الى سد حاجاتهم وتحقيق طموحاتهم واهدافهم القريبة والبعيدة. ان لكل فرد عراقي او جماعة عراقية كالأسرة والمدرسة وجماعة اللعب طموحات وأهدافاً ترمي الى تحقيقها، غير انها لا تتمكن من ذلك دون اتصالها وتفاعلها وتعاونها مع الافراد والجماعات الاخرى،

اذ ان الاتصال والتفاعل مع وحدات المجتمع الاخرى هو الذي يؤمن حاجاتها ويسد مطالبها ويحقق آمالها وأهدافها.

يمكن تعريف المجتمع العراقي على انه مجموعة من الافراد العراقيين تقطن على بقعة جغرافية محددة في كل مساحة العراق وتتمسك بمجموعة من المبادئ والمقاييس والقيم والروابط الاجتماعية والاهداف المشتركة التي اساسها اللغة العربية والتاريخ والمصير المشترك الواحد. ولعل هذا التعريف للمجتمع العراقي من ادق التعاريف المطروحة واشملها واكثرها علمية وواقعية. فالتعريف يركز على اهم المقومات والشروط التي ينبغي توفرها في المجتمع لكي يسمى بالمجتمع العراقي كالسكان الذين يتكلمون معظمهم اللغة الواحدة وهي اللغة العربية ولهم تاريخ مشترك هو التاريخ العراقي المعاصر والقديم ويؤمنون بأهداف مصيرية واحدة كالاستقلالية والسيادة والتحرر والتنمية والتقدم، ويعيشون على بقعة جغرافية معلومة ومحددة ومعترف بها سياسيا، وهذه البقعة الجغرافية تمتد من تركيا شمالا الى الخليج العربي جنوبا ومن ايران شرقا الى سوريا والمملكة العربية السعودية والاردن غربا.

وهناك من يعرف المجتمع العراقي بانه مجموعة انماط معقدة وشائكة من الممارسات السلوكية التي تنظمها القواعد والضوابط الخلقية والقيمية التي يعترف بها المجتمع وجاءت نتيجة صلاحيتها وفعاليتها في تمشية امور المجتمع والحفاظ على كيانه وتحقيق اهدافه القريبة والبعيدة. بيد ان الممارسات السلوكية اليومية التي يتحلى بها العراقيون وتحدد مهامهم وانشطتهم وطرق علاقتهم وتفاعلاتهم انما تتأثر بطبيعة القيم والمبادئ التي يتمسكون بها والتي اكتسبوها عبر عمليات التنشئة الاجتماعية والاسرية. علما بان ممارسات العراقيين ونماذج سلوكهم تتلون بطبيعة الادوار الاجتماعية الوظيفية التي يحتلونها في المؤسسات الوظيفية البنوية التي

محاضرات عن دراسات في المجتمع العراقيإعداد : د. زينب هاشم

يتكون منها المجتمع العراقي كالمؤسسات الدينية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والاسرية والتربوية.

وهناك من عرّف المجتمع العراقي على انه مجموعة من الافراد تكون في حالة اتصال دائم ولها اهداف ومصالح مشتركة ومصير واحد. وبالالاتصال الدائم نعني جميع الروابط والتفاعلات التي تقع بين العراقيين مهما تكن طبيعتها مباشرة او غير مباشرة، دائمية او مؤقتة، شعورية او غير شعورية، تعاونية او عدائية. الا ان وحدة الافراد في جماعات ومنظمات وتكامل الجماعات والمنظمات في تجمع بشري ذي صفة اجتماعية وحضارية معينة يسهم في ظهور المجتمع العراقي وبلورة نظمه واهدافه وخطط عمله. اذن المجتمع العراقي يتكون من افراد ينتمون الى جماعات بشرية كالأسر والمدارس والوحدات العسكرية والمصانع والمزارع والدوائر البيروقراطية والنوادي والجمعيات.. الخ، وهذه الجماعات البشرية تكون في حالة اتصال وتفاعل الواحدة بالآخرى، ولكل من هذه الجماعات هيكلها ووظائفها واهدافها التي غالبا ما تتسجم مع طبيعة المجتمع العراقي الكبير وتسير في خطه العام وتتبنى فلسفته واساليب حياته.

وهكذا نعتمد في تعريف المجتمع العراقي على اربعة عناصر اساسية هي الشعب (مجموعة الافراد) والوطن (الارض التي يعيش عليها الشعب) والروابط الاجتماعية التي تربط ابناء الشعب وتكون اساسا وفي تضامن الشعب ووحدته، واخيرا عناصر المجتمع وهي اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد الاجتماعية والاهداف العليا والمصير المشترك الذي يجمع ابناء المجتمع الواحد سوية من اجل مواجهة الاخطار والتحديات وبلوغ الغايات العليا التي يصبو اليها الافراد والجماعات.

اما ما يتعلق بمكونات المجتمع العراقي فان المجتمع العراقي يتكون من شبه الجماعات التي تعد بمثابة كتل جماهيرية يسعى الى تحقيق اهداف وغايات معينة

كالفئات والجماعات الاجتماعية التي تتكون من افراد يتميزون بظروف ومعطيات اقتصادية واجتماعية معينة، او العمال الذين يرومون تكوين نقابة عمل خاصة بهم تتولى مسؤولية الدفاع عن حقوقهم الاجتماعية والمهنية والاقتصادية والثقافية او جماعة الرياضيين الذين يطمحون الى تكوين ناد رياضي يمكنهم من مزاوله تمارينهم والعبهم الرياضية.

بيد اننا نستطيع تصنيف الجماعات التي يتكون منها المجتمع العراقي الى فئات مختلفة وفقا لمعايير معينة كالحجم مثلا او التوزيع الجغرافي او المهنة او المستوى الثقافي والعلمي او الانتماء الطبقي. لو قسمنا الجماعات حسب معيار الحجم لشاهدنا بان هناك جماعات كبيرة الحجم كالمصانع والمزارع والدوائر البيروقراطية التي يزيد عدد منتسبيها عن ١٠٠٠ عضو، وهناك جماعات متوسطة الحجم كالمصانع والمزارع والنوادي والشركات التي لا يزيد عدد منتسبيها عن ٢٠٠ عضو، وهناك جماعات صغيرة الحجم كالاسرة والقرابة او الرفقة التي تتكون من عدد من الاصدقاء والاصحاب، اما تقسيم الجماعات على اساس المهن في المجتمع العراقي فيمكن الاعتماد عليه في معرفة الانتماءات الطبقية والفئوية ومعرفة درجة كفاءة الموارد البشرية في المجتمع وفعاليتها كتقسيم المجتمع الى جماعات العمال والمزارعين والمعلمين والاطباء والصيادلة والمهندسين والمحامين والكادحين ..الخ.

اذن يتكون المجتمع العراقي من جماعات وفئات مختلفة تربط افرادها روابط اجتماعية دائمية او مؤقتة تعتمد على المصالح والاهداف المشتركة وتحدد بالضوابط والقواعد السلوكية والقيمية التي يقرها المجتمع ويعترف بها علما بان المجتمع العراقي يعتمد على اللغة العربية التي يتفاهم افراده من خلالها، والتاريخ العراقي القديم والمعاصر الذي يعمق وحدتهم ويشد بعضهم الى بعض، والمصير المشترك الذي ينتظر العراقيين والذي يوحد صيغة عملهم ويوجه سلوكهم في خط

معين، والعادات والتقاليد التي تبلور اجتماعهم الانساني وتؤثر في شعورهم وجوارحهم وتحقق التعاون والالفة والمحبة بينهم.

ان المجتمع العراقي نتيجة مكوناته البنوية هو تجمع اقليمي للعراقيين ارتبطوا من خلاله بصلة الحضارة العراقية بشقيها المادي وغير المادي، وهذا الارتباط جعلهم مؤمنين بقيم واحدة ومصالح مشتركة وأهداف عليا. علما بان القيم والمصالح والاهداف التي يؤمن بها العراقيون جعلتهم موحدين و متماسكين، وهذا هو سر قوتهم ونجاحهم في تحقيق الاهداف المتوخاة. ان الانسان في المجتمع العراقي القديم وجد على شكل جماعات يتعاون افرادها في سد حاجاتهم والدفاع عن انفسهم وبناء مقومات حياتهم وتطوير حضارتهم. ان الانسان العراقي لا يمكن ان يعتبر انسانا بالمفهوم الصحيح الا اذا تقيد والتزم بقواعد منظمة لسلوكه ومنظمة لسلوك الجماعة والجماعات التي ينتمي اليها.

ومن الجدير بالاشارة هنا الى ان المجتمع العراقي القديم قد مرّ بمراحل تاريخية متعاقبة تطور خلالها من شكل آخر حيث مرّ بمرحلة الصيد والجمع ومرحلة الاستقرار حيث بنى القرى ومارس الزراعة ودجن الحيوانات وأقام المدن وأسس فيها انواع الحضارات التي تعد من اولى الحضارات في العالم كالحضارة السومرية والاكديّة والبابليّة والآشورية. وخلال هذه المراحل كانت تتبلور النظم الاجتماعية في المجتمع العراقي لتحديد علاقات وممارسات الافراد بعضهم مع بعض. صحيح ان هناك فترات في تاريخ العراق القديم غلب فيها شيوع نوع او اخر من هذه التنظيمات لظروف

تتعلق بحضارة جماعة او جماعة اخرى، وان لكل شكل من اشكال هذه التنظيمات ما يقابله من أعراف وتقاليد وقواعد سلوكية تنظم حياة المجتمع وتقود الى رقيه وتقدمه.مما ذكر اعلاه من معلومات نخلص الى القول ان المجتمع العراقي مكون من جماعات وفئات وطبقات اجتماعية تشكل بمجملها البناء

الاجتماعي للمجتمع، هذا البناء الذي يتميز بالسماة التي تتميز بها وحداته التكوينية. فاذا كانت الوحدات متجانسة ومتضامنة فان البناء الاجتماعي للمجتمع يكون صلباً وقوياً، والعكس هو الصحيح اذا كانت الوحدات ضعيفة ومفككة.

(الفرق بين المجتمعات البدائية والقديمة والتقليدية)

كثيرا ما يخط الباحثون في استعمال هذا الكلمات او لعلمهم لم يعرفوا الفرق بينها والفرق بين هذه المجتمعات الثلاث:

المجتمع البدائي : هو مجتمع قديم او معاصر لكنه لا يمتلك حضارة، ولا يعرف الكتابة اطلاقا، وانما يتفاهم اعضاؤه فيما بينهم بواسطة اللغة واللهجة. ويقوم اقتصادهم على الاكتفاء الذاتي. وتقسيم العمل يكون حسب الجنس والعمر.

لكننا الان نلاحظ انه في وقتنا الحاضر لا توجد مجتمعات لا تعرف الكتابة وان وجدت فهي قليلة جدا. اذن المجتمعات البدائية هي مجتمعات اغلبها قديمة بدائية لا تمتلك حضارة ولا تعرف الكتابة.

اما المجتمع القديم : فهو مجتمع قديم جدا " أكل الدهر عليه وشرب" مثل السومريون والكلدانيون والاشوريون وكذلك البابليون. وصحيح انها مجتمعات قديمة جدا لكنها تخالف المجتمع البدائي كونها تمتلك حضارة وتعرف الكتابة ايضا.

واقصادها يقوم على اساس ارقى من المجتمع البدائي والمجتمعات التي ذكرتها انفا " السومريون ... الخ " تسمى بالمجتمعات ذات الحضارة العليا لانها هي التي اخترعت الكتابة.

انها مجتمعات قديمة وليست بدائية

اما المجتمع التقليدي : هو مجتمع معاصر ويمتلك حضارة ويعرف القراءة

والكتابة لكنه متزمت بتقاليده، ويتميز افراد المجتمع التقليدي بصفات مشتركة تجمعهم فيما بينهم مثال على ذلك المجتمع العراقي وغيره.
حيث ان هناك بعض المدن العراقية هي تقليدية - شعبية. متزمتة بتقاليدها وارثها الحضاري أي انها مجتمعات محافظة وليست مجددة وكذلك المجتمعات العربية هي ايضا تقليدية بعض الشيء.
ولتوضيح اكثر ادرج لكم تعريف الحضارة او الثقافة:

تعريف الحضارة : حسب تعريف ادورد تايلر الحضارة او المدنية هي ذلك الكم المركب الذي يحتوي على الفنون والتقاليد والقيم وكافة القابليات والعادات التي يكتسبها الانسان بصفته عضوا في مجتمع ما.

والملاحظ ان ادورد تايلور استعمل كلمتي الحضارة والمدنية في مدلول واحد في حين ان المتفق عليه ان الاخيرة " المدنية " ليست الا درجة من الاولى " الحضارة."

ومن الممكن ان نقول ان المجتمعات في القرون الماضية يمكن تقسيمها الى نوعين هما:

الاول : المجتمع القديم وهو يعرف الكتابة وذات حضارة عليا مثل السومريون والفراعنة وغيرهم

الثاني : المجتمع البدائي..... مجتمع متخلف لا يعرف الكتابة ولا يملك حضارة

اما الان فيمكن ان نقول ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرون ان هناك نوعان من المجتمعات هما:

الاول : المجتمع المتحضر المتمدنكالمجتمعات الاوربية وغيرها
....."مجتمع مجدد"

الثاني: المجتمع التقليديمثل الدول العربية المتزمتة بعض الشي بتقاليدها
وترفض احيانا التطور والتقدم "مجتمع محافظ"

طبيعة المجتمعات وخصائصها

كل مجتمع من المجتمعات المختلفة لديه مجموعة من السمات والخصائص المميزة له لذلك فإن المجتمع العراقي يقسم إلى ثلاث مجتمعات:

أولاً: مجتمع البداوة

ثانياً: مجتمع الريف

ثالثاً: مجتمع الحضر أو المدينة

أولاً: مجتمع البداوة:

خصائص البداوة في المجتمع العراقي:

١- الثقافة الاجتماعية:

لكل ثقافة اجتماعية طابع عام تتميز به عن غيرها، وهنا ينبغي أن نسأل:

ما هو الطابع الذي تتميز به الثقافة البدوية؟

ج/ ١- الفضائل الرئيسية في البداوة هي الشجاعة والكرم والضيافة والولاء للقبيلة والثأر.

٢- الفردية: تعني أن كل فرد مسؤول عن نفسه وعن أعماله وأقواله الخاصة به.

ان النزعة (الجماعية) في البداوة تقوم مقام النزعة الفردية.

٣- حقوق الملكية:

لا توجد حقوق ملكية في البداوة لعدم وجود دولة فيها وهذا ناتج عن شيوع الغزو

٤- تتميز البداوة بالعصبية القبلية فالفرد يجد فيها الامن والضمان والرعاية.

ثانياً: المجتمع الريفي:

الريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها والريف في اللغة يعني موضوع الزرع والشجر. والقرى هي الوحدة الاجتماعية للريف.

المعايير المميزة للريف

- ١- معيار الحجم: هو حجم العمران من المنازل في المنطقة الجغرافية التي تستغلها القرية فتميز بقلة منازلها وتضائل أحوالها.
- ٢- المعيار الوظيفي: يقصد بها الخدمات الادارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية لتلبية احتياجات السكان هناك.
- ٣- المعيار الاجتماعي: ويقصد به نمط المعيشة ونوع النشاط الاقتصادي وحقيقة الوضع الاجتماعي إذ أن الحياة الاجتماعية تمتاز بالبساطة والهدوء والتماسك الاجتماعي والتمسك بالقيم والعادات والتقاليد.

ثالثاً: المدينة:

هي وحدة اجتماعية كبيرة يعيش فيها أفراد المجتمع في مساحة معينة رغبة في تبادل المنافع ويقوم النشاط فيها على الصناعة والتجارة وارتفاع مستوى المعيشة، واتساع تقسيم العمل وزيادة التخصص.

أسباب قيام المدن:

- ١- عوامل نفسية وتتمثل في ضرورة الاجتماع للدفاع ضد الاخطار وتأمين حياة الافراد وبجانب ضرورة الدفاع تقوم ضرورات سيكولوجية تتمثل في تبادل مشاعر الافراد وأحاسيسهم وتفاعل رغباتهم.

- ٢- عوامل اقتصادية: تتمثل في ضرورة العمل وتبادل المنافع وتوزيع المكاسب وتحقيق الغاية من الحياة الاقتصادية ألا وهي الاستهلاك.
- ٣- عوامل ثقافية: ساعدت على ارتفاع الحياة المدنية والمظاهر الحضارية بالاجمال. اي أصبحت المدينة عامل جذب للمتقنين والادباء.
- ٤- عوامل صناعية: ساعدت على الهجرة من الريف إلى مراكز التصنيع.

الخصائص المميزة للمدينة

- ١- الكثافة السكانية وظهور حالة اللاتجانس في المجتمع.
- ٢- الحراك الاجتماعي إذ يكون أكثر وضوحاً في المدن.
- ٣- التفاعل الاجتماعي ويتميز بالعلاقات الرسمية.

العوامل المؤثرة في الوضع الاجتماعي للمدينة:

- ١- أن نمو المدينة وتباين سكانها يؤدي إلى ظهور الروابط السطحية بينهم.
- ٢- أن الزيادة في حجم المدن يؤدي إلى التباعد واللاتجانس بين أفراد المجتمع.
- ٣- تؤدي إلى ميل الافراد إلى الفردية في العمل.
- ٤- الزيادة في حجم المدينة قد يؤدي إلى امتداد أطرافها إلى خارج حدودها التقليدية.
- ٥- تؤدي إلى ظهور انماط مختلفة في التخصص ضمن مجالات الحياة الاجتماعية وأنشطتها المختلفة.

الفصل الثاني

المجتمع العراقي:

هناك انتقاد موجه من قبل بعض الباحثين ضد دراسة المجتمع العراقي، ففي رأيهم يجب أن يدرس المجتمع العربي أولاً. أما المجتمع العراقي فهو ليس سوى جزء من ذلك المجتمع الاكبر، بمعنى أن الكل أولى بالدراسة من الجزء.

إذا لماذا المجتمع العراقي؟

أولاً: من المعروف في الطريقة (الاستقرائية) الحديثة أنها تبدأ بدراسة الجزئيات لكي تتوصل إلى فهم الكليات العامة.

ثانياً: من خصائص المجتمع العربي أنه يشمل بقعة من الكرة الارضية واسعة جداً، فهو يمتد من المحيط الاطلسي إلى الخليج الفارسي، وهذا التباعد بين أقطار الوطن العربي جعل كل قطر منها يعاني من ظروف خاصة به تختلف عن ظروف الاقطار الاخرى.

ولو وجدنا كل قطر عربي له تاريخه الخاص من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما أشبه..

ثالثاً: أن المشاكل لا بد أن تعالج في ضوء قيم كل مجتمع او قطر وفقاً لظروفه الخاصة.

رابعاً: ان العراق هو أول الحضارات أي انه سباق في التحضر والتقدم أكثر من الدول العربية الاخرى لكنه تعرض إلى الكثير من العوائق والصعوبات التي تقف في طريق هذا التقدم.

ونتيجة لمميزاته الاقتصادية والسياسية جعلته محل أطماع المستعمرين.

لماذا العهد العثماني؟

لأن العهد العثماني ظل مسيطراً على العراق زهاء أربعة قرون ولم ينقشع عنه إلا من خلال الحرب العالمية الاولى.

لهذا فإن العادات والقيم والافكار التي كانت سائدة في ذلك العهد لاتزال مؤثرة في المجتمع العراقي بصورة مباشرة أو غير مباشرة إذ أن تركيب شخصية الفرد العراقي في الوقت الحاضر هو نتاج التفاعل بين ما كان عليه الفرد في ذلك العهد، وما جاءت به الحضارة الحديثة من عادات وقيم وأفكار.

فضلاً عن ذلك أن الدولة العثمانية لم تكن دولة في بداية أمرها بل كانت قبيلة بدوية جاءت من تركستان الشرقية واستوطنت في الاناضول تحت حكم السلاجقة.

لذلك يمكن القول أن الدولة العثمانية قامت منذ بداية ظهورها على أساس من (العصبية القبلية والغزو) تحت ستار مصطنع بإسم الدين فكانت تفاخر بالفتح والغنيمة أكثر من تفاخرها بال عمران والدولة فكانت إحدى العوامل الاساسية لتسلل البدو إلى العراق بسبب ضعف سيطرة الحكومة وشيوع الفوضى والنزاع القبلي في العراق.

بعد هذا المدخل البسيط لدراسة طبيعة المجتمع العراقي يمكننا التطرق إلى

بواكير الاصلاح والنهضة في المجتمع العراقي:

بواكير الإصلاح والنهضة في العراق

من ١٨٦٩-١٩١٤

اولا: دور بعض الولاة العثمانيين في الحركة الاصلاحية:

الوالي المصلح مدحت باشا:

ولد مدحت باشا سنة ١٨٢٢ وكان والده يعمل قاضيا، عرف عن مدحت باشا الجدية والمتابعة منذ صغره، إذ اكمل تعليمه في المدرسة العرفانية النموذجية في اسطنبول ١٨٣٨ ثم انتقل الى مدرسة "الخوجة" واستمر في الدراسة حتى عام ١٨٤١ ، عين كاتباً وهو في الثامنة عشر من عمره، ولقد تدرج في الوظائف الصغيرة حتى عرف عنه الاخلاص والجدية والمثابرة في العمل، اوكلت اليه الدولة اعادة الاستقرار الى البلقان ايام اضطرابها، وارسل كذلك للتحقيق في حوادث البلغار ولإصلاح شؤونهم. فكانت هذه الاعمال حاضرة وسببا في ترقيته الى رتبة الوزارة، ثم في رئاسة شورى الدولة. ولقد عرفت عن مدحت باشا جملة من الخصال الجميلة يأتي على رأسها المساواة بين الناس.

صدر فرمان السلطاني بتعيين مدحت باشا واليا على بغداد سنة ١٨٦٩ بعد عزل الوالي تقي الدين باشا (1867-1869) كما عهدت اليه قيادة الفيلق السادس. وامتدت صلاحياته لتشمل بالاضافة الى ولاية بغداد ولاية الموصل والبصرة. ولقد كان لتعيين الوالي مدحت باشا على العراق عدة اسباب قد يأتي في

مقدمتها:

١ - ابعاد مدحت باشا عن مركز العاصمة بعد تزايد شعبيته على اثر الخلافات التي دارت بينه وبين الصدر الاعظم اي رئيس الوزراء. كما ان هناك من يرى ان

مدحت باشا قد اظهر رغبته في ولاية بغداد للابتعاد عن العاصمة التي اضحت مركزاً للصراعات والتنافس على المراكز والسلطة.

٢- رغبة السلطان في تهيئة مدحت باشا لتولي مهام ومناصب عليا في الدولة.
٣- اهمية المرحلة الزمنية وضرورتها التي فرضت على الدولة العثمانية ان تفكر في جعل العراق طريقاً دولياً لمنافسة قناة السويس، التي هي خارج اطار سيطرتها، لمواجهة نشاط الدول الغربية واطماعها في منطقة نفوذها.

١- النفوذ البريطاني في المنطقة والذي صار يشكل تهديداً لمصالح الدولة العثمانية جعلها تحاول مدّ سيطرتها على الخليج العربي وهذا الامر في حاجة الى قيادة قوية ومخلصة ومدحت خير من يمكن اختياره لهذه المهمة.

٢- الاهمال الذي شهده العراق من الولاة السابقين والذي اثر بصورة مباشرة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والذي يؤثر بدوره في واردات الدولة العثمانية من الضرائب بل ربما هو عبء اقتصادي كبير كما في حالة تجهيز الحملات لمواجهة عصيان القبائل وتحديدهم لنفوذ السلطة، قد يكون احد العوامل المهمة التي دعت السلطان إلى محاولة جعل قيادة قوية تعمل على تحسين الامور وانعاش الحياة في العراق.

٣- كما ان تزايد النشاط الايراني على الحدود العراقية، وتأليبها للقبائل ضد السلطات العثمانية، فضلا عن عدم التزام الجانب الايراني بمقررات لجنة ترسيم الحدود وكذلك باتفاقية (ارضروم)*، يستدعي وجود قيادة قادرة على اظهار قوة الدولة العثمانية اضافة الى تمتعها بقدر عالٍ من الدبلوماسية السياسية ومدحت باشا كان يمثل الرجل المناسب في المكان المناسب.

ان كل هذه الاسباب التي ذكرت، وقد يكون هناك المزيد منها، كانت تصب في مصلحة المجتمع العراقي الذي طال به الامل وهو يحكم بولاة آخر ما كان يهتمهم مصلحة البلاد والعباد.

فلقد كان لظهور الوالي مدحت باشا على الساحة السياسية والاجتماعية العراقية الأثر الكبير في احداث انتقاله كبير ونوعية من خلال جملة الاعمال والمشاريع والاصلاحات التي قام بها والتي من بينها :

- ١- انشأ اول مدرسة حديثة كانت للذكور.
- ٢- انشأ اول مدرسة للصنائع للايتام.
- ٣- شيد مستشفى للغرباء في جانب الكرخ.
- ٤- اسس شركة ترامواي الكاظمية.
- ٥- شيد الكثير من الابنية العامة.
- ٦- صنع جسرا جديدا لبغداد وزينه لكي يمر عليه المشاة.
- ٧- اول من أنشأ حديقة عامة للترفيه عن العوائل البغدادية.
- ٨- اوصل الماء بالانابيب الى بعض المحلات في بغداد، بعد ان كان ينقل بواسطة الدواب الى البيوت.
- ٩- عمل على اكساء بعض الطرق بالاسفلت، بعد ان كانت مليئة بالحفر والمياه الأسنة.
- ١٠- اهتم براحة الزوار والمسافرين الذين يفدون الى بغداد، ومحاولة تأمين الراحة لهم من خلال انشاء خان ضخم يتناسب ومكانة بغداد في ذلك الوقت.
- ١١- كما ان هناك انجازاً على درجة كبيرة من الاهمية وهو القيام بتسجيل النفوس، إذ تمت في سنة ١٨٦٩ اول عملية تسجيل نفوس، وان كان قد استخدم الشدة ضد الذين كانوا يعارضون هذه العملية.

١٢- كما ان هناك العديد من الاعمال والانجازات التي قام بها وتخدم المواطن العادي كرفعه بعض الضرائب عن كاهل المواطنين، وكذلك الاخذ على يدي التجار الجشعين ومحاولة ضبط الاسواق خلال فترات الازمات.

وكما هو معلوم كان مدحت باشا شخصية على درجة عالية من الانفتاح على الحركة الفكرية والاصلاحية في الغرب، مضافا الى كل ذلك جملة من السمات التي جعلت منه قوة كبيرة في احداث اصلاحات على مستوى الامبراطورية العثمانية بشكل عام إذ انه وكما هو مثبت في التاريخ قد خلع السلطان عبد العزيز ونصب مكانه السلطان عبد الحميد، الذي عاهده على السير بالدستور أو المشروطة.

والذي تجدر الاشارة اليه ان الوالي مدحت باشا يؤكد انه قد لاحظ ان هناك حباً اضحى للوطن بين المسلمين وغير المسلمين لانهم علموا ان الدستور يضمن لهم الشراكة في الوطن وضمن الحقوق، واذا كان الرجل على هذا المستوى من التفكير فانه من الطبيعي ان ينقل افكاره الى الساحة العراقية التي كانت ميدانه وهو اللاعب الابرز والاكثر قدرة وامكانية. ولعلنا نجد أنه صار قدوة للكثير من الولاة الذي جاءوا من بعده وحاولوا ان يكسبوا ود المواطنين العراقيين من خلال ما يمكن ان يقدموه من انجازات يحاولون بها محاكاة هذا الرجل أو التفوق عليه إن أمكن لهم ذلك، ومنهم:

ثانياً: الإصلاح الدستوري أو (المشروطة)

كان هناك بؤادر وعي ثقافي وفكري قد عصفت بالمحيط الجغرافي للمجتمع العراقي وخصوصا في ايران وتركيا لكون مجتمعات كل منهما على علاقة وتماس مع الآخر الاكثر تقدما، ففيما يتعلق بتركيا كانت علاقاتها مع العالم الاوربي بكل ما يحمل من مغريات وانجازات النهضة الاوربية وتاثر عدد غير قليل من القادة السياسيين وطلاب العلوم الحديثة بما لدى العالم الاوربي من نظم ودراسات ومشاركة في الحياة السياسية، اما ايران فلقد كان لاتساع النفوذ البريطاني والروسي الاثر الاكبر في ظهور وانتشار مفهوم المشاركة السياسية واعلان الرفض للاستبداد...ويمكن القول اجمالاً ان هذه العواصف الفكرية كانت تشترك في مرتكزاتها الاساسية في المناداة بالحرية والمساواة والعدالة، وتبلورت بعد حين لتصبح مطالب جماهيرية تنادي بضرورة وجود حالة تعاقدية ما بين الحاكم والمحكوم.

ثالثاً: التعليم في العراق:

مما لاشك فيه ان الترابط العضوي بين مفردات الحياة الاجتماعية يجعل من اي تغيير أو تطور في اي قطاع من قطاعات الحياة الاجتماعية ينعكس بصورة مباشرة أو غير مباشرة على بقية القطاعات. ويبدو ان الحراك الذي شهدته الحياة الاقتصادية والاطلاع على ثقافة الاخر... كان له الاثر الكبير في زيادة اهتمام العراقيين بالجانب العلمي والتعليمي الرسمي، إذ شهد الناس مدى الفائدة أو المكاسب التي يحصل عليها المتعلم من خلال تعيينه في الوظائف الرسمية سواء اكانت هذه المكاسب مادية أم معنوية.

وإذا كانت بداية انشاء المدارس في ولاية بغداد على يد الوالي مدحت باشا فإن هذه المدارس استمرت بالانتشار وان كانت بصورة بطيئة..ومع ذلك فإن

هناك اكثر من اتجاه يسير جنباً الى جنب مع المدارس الرسمية، كالمدراس الاهلية أو التبشيرية، أو المدارس الدينية فعلى سبيل المثال" بلغ عدد الطلاب في الحوزة العلمية في النجف في نهاية القرن التاسع عشر عشرة آلاف طالب، في حين لم يكن عدد الطلاب في المدارس الراشدية في طول البلاد وعرضها الاثلاثمائة وستين طالباً، ومن المعلوم ان الدراسة في الحوزة العلمية النجفية (التي تدرس العربية والفقه وآداب وعلوم القرآن والحديث والمنطق والكلام والفلسفة وغيرها) اعلى بمراحل كثيرة من الدراسة في المدارس الراشدية التي هي في مستوى المدارس المتوسطة".

تجدر الإشارة الى انه تم تأسيس اول مجلس للمعارف في بغداد سنة ١٨٨٤، وابعقه تأسيس مجالس مماثلة في الموصل والبصرة وكان في كل ولاية مديرية للمعارف.

وعلى الرغم من ان التدريس في تلك المرحلة كان باللغة التركية الان تعطش المجتمع العراقي للتعليم لم يكن ليقف حائلاً امامه حاجز اللغة كما ان المدارس سرعان ما صارت ترفد نفسها بالمدرسين العراقيين الكفاء الذين صاروا ينافسون اقرانهم من المدرسين الاتراك.

ويمكن ان نتلمس العديد من الشواهد الدالة على تحمس العراقيين للتعليم حتى بات يخطو خطوات كبيرة في ظروف قياسية، فلقد ساد التنظيم في الدوام وطبق في بعض الاحيان حتى الزي الموحد، ويمكن القول ان السياسة التعليمية في نهاية العهد العثماني قد تميزت بالاهتمام بالمدارس الراشدية حتى تكون هذه المدارس رافداً مهماً في توفير الخريجين الذين يتولون مهام ووظائف ادارية في الدولة العثمانية وولاياتها الكثيرة....

تمثل سنة ١٨٨٩ بداية الاهتمام بانشاء المدارس الابتدائية في ولاية بغداد، إذ تم انشاء اربع مدارس ابتدائية هي الحميدية ، والكرخ وجديد حسن باشا،

محاضرات عن دراسات في المجتمع العراقيإعداد : د. زينب هاشم

والعثمانية، فضلا عن ستّ مدارس في الاقضية التابعة لولاية بغداد، وظل الامر في حالة تصاعد بطيئة حتى حل عام ١٩٠٥ فكان هناك عشرون مدرسة في بغداد. اما في الموصل فلقد بلغ عدد المدارس ثلاثين مدرسة عام ١٩٠٥ .
اما في ولاية البصرة فإن المدارس الابتدائية قد بلغ عددها سبعاً وعشرين مدرسة.

الفصل الثالث

نظرية علم الاجتماع: المنظورات البنائية والتأويلية

ما نقصده بنظرية علم الاجتماع - في هذه المرحلة - مجموعة من الافكار التي تشكل الفكر السوسيولوجي، وهي أفكار أما تم اختبارها، أولم يتم اختبارها. وأفضل طريقة لفهم جوانب الاختلاف بين علماء الاجتماع المعاصرين - وكثير من هذه الجوانب يعود بجذوره إلى أفكار دور كايم وماركس وفيرر - هي أن ندرس بعض المسائل الأساسية لنظرية علم الاجتماع التي حاول هؤلاء الثلاثة أن يجيبوا عنها بطريقة أو بأخرى. وليس بالامكان تأسيس منظور في علم الاجتماع دون الاجابة عن المسائل السبعة التالية، مع أنه يمكن إثارة مسائل أخرى مهمة:

- ١- مم يتكون المجتمع؟
- ٢- كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟
- ٣- لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟
- ٤- ما الذي يسبب التغيير الاجتماعي
- ٥- هل المجتمع بطبيعته في حالة توازن أم صراع؟
- ٦- ما علاقة الفرد بالمجتمع.
- ٧- ما هو الهدف الأساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟

وقد ساعدت الاجابة عن تلك المسائل بواسطة دور كايم وماركس وفيرر في إنتاج ثلاثة اتجاهات متميزة للفكر السوسيولوجي، أو ثلاثة منظورات سوسيولوجية هي: الوظيفية (التي تدين بالفضل الكبير لأميل دوركايم)، والماركسية (ماركس) ونظرية الفعل الاجتماعي (فيرر). وسوف ندرس على نحو منفصل هذه الاتجاهات الثلاثة والاجابات التي قدمتها عن المسائل النظرية السابقة. وجميع هذه المنظورات السوسيولوجية الثلاثة بنائية بطبيعتها. ويختص علم الاجتماع البنائي بصفة أساسية بكيفية تأثير المجتمع في السلوك الفردي والجماعي بدلاً من كيفية

تأسيس المجتمع بواسطة الافراد والجماعات. فعلم الاجتماع البنائي يهتم - على سبيل المثال بكيفية تأثير طبقة الفرد وعائلته (أي الوضع الاجتماعي - البنائي للفرد) على احتمالات نجاحه في المدرسة أو حصوله على وظيفة جيدة. وينطبق على الوظيفية صفة بنائية الاجماع؛ لأنها تؤكد على الدور المحوري الذي يلعبه الاتفاق (الاجماع) بين الناس على القيم الاخلاقية في المحافظة على النظام الاجتماعي. هذا من جانب، ومن جانب آخر تؤكد الماركسية ونظرية الفعل الاجتماعي على الصراع - بدلاً من الاجماع - في المجتمع. ومن الملامح المميزة للنظريات البنائية أنها تسعى إلى التفسيرات العلمية أو الوظيفية للسلوك الاجتماعي. وعلى العكس من البنائية يهتم علم الاجتماع التأويلي بالدرجة الاولى بكيفية قيام الافراد والجماعات بتأسيسي المجتمع، وإضفاء معنى عليه، ومعايشة الحياة فيه، بدلاً من الاهتمام بكيفية تأثير المجتمع على الافراد والجماعات. ومن الامثلة على هذا الضرب من التفكير الذي يشغل علماء الاجتماع التأويلي مشاعر الفرد الموصوم بالاجرام، أو الجنون، أو الغباء في المدرسة. ويمثل علم الاجتماع التأويلي - في جانب منه - رد فعل مناوئاً للمنهج العلمي أو الوضعي المرتبط بالمنظورات البنائية. وسوف نناقش لاحقاً علم الاجتماع التأويلي بقدر من التفصيل. أما ما ناقشه الآن فهو وصف وصف لعلوم الاجتماع البنائية (الوظيفية، والماركسية، ونظرية الفعل الاجتماعي) بالاشارة إلى المسائل السبعة الاساسية المثارة آنفاً. وسوف نلاحظ أن الاجابات عن هذه المسائل تختلف بين هذه المنظورات اختلافاً يصل إلى حد التناقض. ولا بد لنا أن نؤكد على أن مناقشة الوظيفية تعكس أعمال الوظيفيين المحدثين - إلى جانب دور كايم - خاصة أعمال تالكوت بارسونز (١٩٠٢-١٩٧٩)

أولاً: المنظورات البنائية

١- الوظيفية (بناء الاجماع): دوركايم

(١) مم يتكون المجتمع؟ يتكون المجتمع أو النسق الاجتماعي من نظم متعددة أهمها الاسرة. والنظام الاجتماعي جماعة من الناس تنتظم حول هدف (أو أهداف) محدد (أو محددة). فالاسرة النووية - على سبيل المثال - تنتظم حول انجاب الطفل وتربيتهم. ومع تقدم المجتمعات تزداد النظم الاجتماعية عدداً وتعقيداً. ويطلق على هذه العملية التفاضل البنائي. ومن الامثلة على النظم المعقدة المعاصرة: الخدمة المدنية (التي تطورت انبثاقاً من وظيفة مستشار الملك) والمنشآت الصناعية (التي تطورت عن الصناعات اليدوية الصغيرة).

ويمكن تقسيم النظم إلى أربعة أنساق فرعية:

• اقتصادية (المصانع، الوحدات الادارية)

• سياسية (الاحزاب السياسية)

• قرابية (الاسر)

• ثقافية واجتماعية (المدارس، ودور العبادة)

(٢) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ يرى الوظيفيون أن المجتمع يعمل بطريقة مماثلة لقيام الكائن الحي بوظائفه. ويشار إلى هذه المقارنة بالمماثلة العضوية. ومن ثم فإن النظم الاجتماعية تقوم بأداء وظائفها معاً من أجل مصلحة المجتمع ككل، مثلما تقوم مختلف اجزاء الجسم البشري بوظائفها معاً من أجل مصلحة الجسم. فعلى سبيل المثال تقوم المدارس بأداء وظيفتها في علاقتها بالعمل لأنها تعد الناس له. ولذلك فإن المجتمع - شأنه في ذلك شأن الجسم البشري - أكبر من مجموع أجزائه التي يتكون منها. ومع أنه يمكن فصل بناء المجتمع عن وظائفه

لأغراض البحث النظري، فإن البناء والوظيفية لاينفصلان في الواقع. ومن الواضح أن المجتمع أو التنظيم لابد أن يكون موجوداً (له بناء) قبل أن يتمكن من القيام بأداء وظائفه (الوظيفية).

(٣) لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟

يمثل عدم التكافؤ في امتلاك القوة في المجتمع مثار اهتمام الماركسيين ومنظري الفعل الاجتماعي بدرجة أكبر من الوظيفيين. ويفترض الوظيفيون أنه من الضروري - من الناحية العملية - أن يكون بعض الافراد والجماعات أكثر قوة من غيرهم؛ لأن هناك عدداً محدوداً منهم هو الذي يمكنه أن يتخذ القرارات المهمة. ومن ثم فلا بد أن يكون هناك قادة في التنظيمات وفي المجتمع، وإلا عم الاضطراب والفوضى.

(٤) ما الذي يسبب التغيير الاجتماعي؟ يحدث التغيير الاجتماعي - في رأي

الوظيفيين - عندما يتبين أنه ضروري من الناحية الوظيفية. فعلى سبيل المثال توسعت المجتمعات المعاصرة في الانظمة التعليمية؛ لأن تلك المجتمعات بحاجة إلى مزيد من المتعلمين بدرجة أكبر من المجتمعات الاقل تقدماً. ويمكن أن يحدث التغيير من خلال التكيف أو التكامل. ويحدث التكيف عندما تقوم مؤسسة قائمة بإعادة التكيف لمقابلة الاحتياجات الجديدة على نحو ما أوضحناه آنفاً. ويحدث التكامل عندما يتبنى المجتمع عنصراً جديداً يجعله جزءاً منه. فالمجتمع قد ينجح أو يفشل في إدماج مجموعة من المهاجرين فيه. ويميل الوظيفيون إلى التفكير في التغيير بطريقة تطورية (تدرجية) لاثورية.

(٥) هل المجتمع بطبيعته في حالة توازن أم صراع؟ يرى الوظيفيون أن

النظام والتوازن طبيعيان في المجتمع، ومن ثم فإن حالة عدم التوازن (الحرب المدنية على سبيل المثال) هي حالة اجتماعية غير طبيعية.

ويشبهه الموظفون عدم التوازن في المجتمع بالمرض في الكائنات الحية. وأساس التوازن الاجتماعي وجود إجماع اخلاقي، بمعنى أن جميع الافراد في المجتمع يشتركون في نفس القيم. وإذا كان ارتفاع مستوى استهلاك السلع يمثل قيمة في المجتمع الأمريكي، فإن الامر ليس كذلك في المجتمعات البدائية اقتصادياً وتكنولوجياً. وسوف نرى فيما بعد أن الموظفين يؤكدون على اهمية تعليم القيم الاجتماعية في المحافظة على النظام والامتثال. وهنا يبرز التأكيد على دور الوالدين والمعلمين في نقل القيم إلى الاجيال الاصغر سناً.

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ يرى الموظفون أن المجتمع يشكل الفرد من خلال تأثير مؤسساته مثل الاسرة والمدرسة ومكان العمل. ولم يترك أنصار الوظيفة إلا مجالاً محدوداً لوجهة النظر القائلة بأن الفرد يمكن أن يتحكم في حياته بدرجة كبيرة، إذا ما نحينا جانباً قدرته على تغيير المجتمع. وفي رأي دوركايم أن الفرد هو محطة الوصول وليس محطة المغادرة. وبلغة أخرى فإن علم الاجتماع - في رأيه - ليس موضوعه الفرد. وسوف نرى فيما بعد أنه ليس كل الموظفين يتفقون مع دور كايم في هذا الرأي.

(٧) ما هو الهدف الاساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يتمثل الغرض الاساسي من علم الاجتماع في تحليل وتفسير قيام المجتمع بأداء وظائفه بشكل طبيعية أو غير طبيعي. وهذا يتطلب دراسة علاقة مختلف أجزاء المجتمع بعضها ببعض، وعلاقة الاجزاء بالكل. إذ يمكن دراسة العلاقة بين التعليم والعمل، وكذا الاسهام (الضروري) لكل منهما في قيام النسق الاجتماعي ككل بأداء وظائفه. وقد أصر دوركايم على أن علم الاجتماع

عليه أن يكتشف ويفسر العلاقة بين الوقائع الاجتماعية، على غرار اهتمام علماء الطبيعة بالوقائع الفيزيقية.

٢- الماركسية (بنائية الصراع II)

(١) مم يتكون المجتمع؟ يتكون المجتمع من طبقات في رأي ماركس، وتوجد طبقتان اجتماعيتان رئيسيتان في جميع المجتمعات، باستثناء أكثر أشكالها بساطة. وعلاقة الناس بوسائل الانتاج هي التي تحدد الطبقة التي ينتسبون إليها. والطبقة الاقوى هي التي تملك وسائل الانتاج (الارض، المصانع)، أما الطبقة الاضعف فهي التي تتبع قوة عملها من أجل لقمة العيش. وفي المجتمع الرأسمالي (أي المجتمع الذي يقوم على اقتصاد المشروع الخاص) تكون الطبقة الرأسمالية (أو الطبقة البرجوازية كما أسماها ماركس) هي الطبقة الحاكمة، والطبقة العاملة (أو البروليتاريا) هي الطبقة الخاضعة. وبلغت أخرى فإن رجال الاعمال يتحكمون في العمال من وجهة نظر ماركس.

(٢) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ يقوم المجتمع بأداء وظائفه - في رأي ماركس - من خلال الصراع الطبقي أساساً. فكل طبقة تسعى بالطبع إلى تحقيق مصالحها، وهذا يجرها إلى صراع مع الطبقات الأخرى. وقد ركز ماركس بصفة خاصة على الصراع بين الطبقة البرجوازية والطبقة البروليتارية في المجتمع الرأسمالي. وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقاً.

(٣) لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ الطبقة هي أساس القوة في رأي ماركس. وبعض الطبقات أكثر قوة من الأخرى؛ لأنها تحوز قدراً أكبر من الملكية والثروة، وهذا يزودها

بالوسائل التي تمكنها من حماية ما تحوزه والمحافظة عليه. وعلى عكس الوظيفيين لا يرى ماركس أن هذه الحالة حتمية وضرورية. فهو يعتقد أن الاشتراكية يمكن أن تحقق مشاركة أكثر عدالة في القوة والملكية والثروة.

(٤) مالذي يسبب التغيير الاجتماعي؟ يحدث التغيير الاجتماعي نتيجة للصراع

الطبقي. فالصراع الطبقي هو محرك التاريخ. وفي أواخر العصور الوسطى كان هناك صراع بين الارستقراطية والبرجوازية والبروليتاريا. ويمثل انتصار الطبقة الجديدة منعطفاً إلى حقبة تاريخية جديدة، ومن ثم فإن بزوغ البرجوازية أدى إلى الولوج في الحقبة الرأسمالية. وهكذا يستمر الرأسماليون في بحثهم الدؤوب عن الموارد والاسواق، لدرجة أن النظام الرأسمالي أصبح نظاماً عالمياً.

(٥) هل المجتمع بطبيعته في حالة توازن أم صراع؟ المجتمع في حالة

صراع جوهري بين الطبقات، ومع ذلك يعترف ماركس بأن فترات النظام والتوازن الاجتماعيين يمكن أن تحدث، حيث يفتر خلالها الصراع الطبقي لفترة مؤقتة، وهذه الفترة تفيد الاغنياء أكثر من الفقراء، والاقوياء أكثر من الضعفاء.

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ هناك مدرستان فكريتان رئيسيتان بين

الماركسيين حول علاقة الفرد بالمجتمع، وهو ما يعكس غموضاً في أعمال ماركس نفسه. وتذهب المدرسة الاولى إلى أن الفرد لا حول له ولا قوة، لدرجة أنه لا يستطيع التأثير في حياته أو حياة الآخرين. ومن يعتقدون هذا الرأي ينظرون إلى الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية على انها حتميان، بغض النظر عما يمكن للفرد أن يقوم به. ومع ذلك يرى بعض من الماركسيين أن هناك دوراً أكبر للفرد في المجتمع، إلا

أنهم يرون أن المصدر الرئيسي لهوية الفرد يأتي من عضويته في الطبقة.

(٧) ما هو الهدف الأساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يهدف علم الاجتماع إلى وصف وتحليل وتفسير الصراع الطبقي. كما يرغب الماركسيون في تغيير العالم باتجاه ماركسي. ومع ذلك فقد تعرضت المجتمعات الماركسية في أوروبا الشرقية لأزمة وتغير في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات. ومن ثم بدأ البديل العملي الرئيسي عن الرأسمالية في التفتت. ولا يعني ذلك أن التحليل السوسيولوجي الماركسي للرأسمالية مشوب كله بالاختفاء.

٣- نظرية الفعل الاجتماعي (بنائية الصراع II): فيبر.

(١) مم يتكون المجتمع؟ ينشأ المجتمع من خلال التفاعل الاجتماعي الذي يقصد به سلوك الناس الذين يرتبطون بعضهم ببعض عن وعي. ويقوم الناس بتشكيل النظم من خلال عملية التفاعل. ومع أن الناس تقوم بإنشاء مؤسسات مثل المدارس والمصانع ودور العبادة، فإن هذه المؤسسات تؤثر بدورها في الناس. ويعود ذلك في جانب منه إلى وجود ضغوط لمراقبة قواعد هذه المؤسسات وإجراءاتها.

(٢) وقد انتاب فيبر شعور بأن ماركس بالغ في التأكيد على أهمية الجماعات الطبقيّة ويعترف فيبر بأن الطبقات ذات أهمية، إلا أنه رأى أن الأحزاب السياسية وجماعات المكانة (الجماعات الاجتماعية، وجماعات الصداقة) قوى مهمة ومؤثرة في المجتمع، وليس من الضروري أن تعتمد هذه على الطبقة كما أدعى ماركس. وقد أكد فيبر كذلك على قوة التنظيمات الكبيرة أو التنظيمات البيروقراطية في التأثير على حياة الفرد.

(٣) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ تأتي إجابة فيبر عن هذا السؤال لتبرز وعيه بتأثير كل من الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد. فهو من ناحية يؤكد أن الأفكار والمشاعر لدى الناس تؤدي في بعض الأحيان إلى إثارة الفعل والتأثير في التاريخ. فعلى سبيل المثال توجد بعض الشخصيات القوية والديناميكية - أو ما أسماها بالقيادات الملهمة (الكارزمية) (مثل المسيح أو نابليون) - يمكن أن تغير بالفعل من مسار الأحداث. ومن ناحية أخرى أدرك فيبر أن حياة معظم الناس تتشكل وتتحدد بواسطة المجتمع الذي يعيشون فيه، خاصة المؤسسات المباشرة التي يتعاملون معها مثل المدارس وأماكن العمل. وقد أهتم فيبر اهتماماً خاصاً بالمؤسسات الكبيرة في المجتمعات المعاصرة (مثل المصانع أو الأجهزة البيروقراطية الحكومية) التي تحد من مجال حرية الفرد وإبداعه. ويبدو أن ما كان يزعج فيبر بدرجة أكبر من الموظفين، هو أن كثيراً من الناس يصيرون مجرد تروس في الآلات الكبيرة، إذا كنا بصدد الحديث عن العمل.

(٤) لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ القوة أحد المفاهيم المحورية عند فيبر. وفي معالجته لهذه القضية جمع فيبر عناصر من علم اجتماع الأجماع وعلم اجتماع الصراع. فهو يتفق مع الموظفين على ضرورة أن يكون بعض الناس أكثر قوة من غيرهم، حتى يتمكن المجتمع من أداء وظائفه بكفاءة. ففي التنظيمات البيروقراطية الحديثة (الخدمة المدنية مثلاً) يوجد دوماً أفراد أكثر قوة على القمة، وآخرون أقل قوة في القاع، أي أن التنظيمات التي تحوز وضعاً قوياً في المجتمع تميل إلى استخدام وضعها في مصلحتها أساساً. ففي مجتمعات العصور الوسطى استخدم الملك والنبلاء القوة في خدمة

مصالحهم، إلا أنهم استخدموها في بعض الاحيان من أجل الصالح العام.

(٥) ما الذي يسبب التغيير الاجتماعي؟ يرى فيبر أن التغيير الاجتماعي يمكن أن يحدث لأسباب عديدة. وبلغة أكثر دقة فإن التغيير الاجتماعي متعدد العوامل وفقاً لتحليل فيبر. فالافكار والاختراعات الجديدة والحروب، وصعود وأفول جماعات القوة والافراد المؤثرين وغيرها من العوامل - كلها تسهم في التغيير التاريخي وتعد جزءاً منه. وفي اصراره على تعدد أسباب التغيير الاجتماعي رغب فيبر في أن يميز موقفه عن موقف ماركس، حيث رأى أنه - أي ماركس - قد بالغ في التأكيد على الصراع الطبقي كسبب للتغيير.

(٦) هل المجتمع بطبيعته في حالة توازن أم صراع؟ أشد الخلاف في الرأي بشأن قضية التوازن والصراع في المجتمع بين الوظيفية والماركسية، إلا أن تلك المسألة لم تشكل قضية هامة عند منظري الفعل الاجتماعي. وفي رأي فيبر أن المجتمع ليس بطبيعته في حالة توازن أم صراع، فوضع المجتمع يختلف من حالة إلى أخرى. وربما يسود المجتمع الاضطراب لعدة قرون، ثم يعاود الاستقرار لعدة عقود. وقد فضل فيبر أن يدرس حالات خاصة بدلاً من القفز إلى تعميمات حول ما هو طبيعي.

(٧) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ تكتسب علاقة الفرد بالمجتمع أهمية محورية في نظرية الفعل الاجتماعي. وعلى الرغم من أن فيبر أدرك على نحو تام أن الافراد يتأثرون بالمؤسسات الاجتماعية مثل الاسرة والمدرسة ومكان العمل ووسائل الاتصال الجماهيري، إلا أنه لم ينظر إلى تحليل عمل هذه المؤثرات وتداعياتها على أنه الغرض الوحيد أو الاساسي من

دراسة علم الاجتماع. إذ أن فهم المعاني التي يخبرها الافراد في حياتهم الاجتماعية أكثر أهمية من مجرد تحليل ما يدفعهم أو يرثر فيهم للتصرف على النحو الذي يتصرفون به. ومع أن فيبر أكد على أن الفعل الفردي تجربة فريدة يمر بها الفاعل الاجتماعي، فقد شعر أنه بمقدوره أن يصل إلى تعميمات بصدد الفعل الاجتماعي؛ فقد يتصرف الافراد بطريقة عقلانية أو وجدانية أو مثالية. ومن الممكن أن يتم تصنيف أفعالهم على هذا النحو. وعلى الرغم من تأكيد فيبر على الخبرات والمعاني الفردية، إلا أنه التزم بعلم الاجتماع العلمي. ومع أن أعمال فيبر تتدرج تحت علم الاجتماع البنائي، إلا أنه يعد أيضاً بمثابة الأب المؤسس لعلم الاجتماع التأويلي. وقد شاع المدخل التأويلي وتطور في أشكال متعددة في القرن العشرين.

(٨) ما هو الهدف الاساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يتمثل الغرض من علم الاجتماع في فهم وتفسير معنى الفعل والتفاعل الاجتماعيين.

التفاعلية

تبحث النظريات البنائية التي عرضنا لها في العلاقة بين الذات والمجتمع من زاوية تأثير المجتمع على الذات. أما أنصار التفاعلية فيتجهون في عملهم من الذات إلى خارجها، مؤكدين على أن الناس يؤسسون المجتمع. ويطلق على هذا المنظور في بعض الاحيان التفاعلية الرمزية؟ نظراً لتأكيدهم على أهمية المعاني الرمزية للاتصال، بما يشمله من لغة وإيماءات وإشارات. ويسلم أنصار التفاعلية تسليمياً كاملاً بالقول بأن المجتمع يصنع الافراد ويشكلهم، ومع ذلك فهم يعتقدون أن هناك فرصاً مستمرة للفعل الابداعي (وهو المصطلح المفضل عند توماس W.I. Thomas، وهو من أوائل مناصري التفاعلية).

وقد تطورت التفاعلية بشكل رئيسي في جامعة شيكاغو خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. ويعد عالم النفس الاجتماعي جورج ميد (١٨٠٠-١٩٤٩) أكثر أنصار التفاعلية تأثيراً.

ويصف ميد مرحلتين عامتين في نمو الذات: مرحلة اللعب الفردي Play stage ومرحلة اللعب الجماعي Game stage. وتكون علاقة الطفل بالآخرين قبل هاتين المرحلتين علاقة تقليد دون إدراك واع بمعاني الأفعال.

وفي المرحلة الأولى يبدأ الطفل بتجريب أدوار معينة مألوفة مثل دور الأب أو المعلم أو الطبيب. ويمثل التظاهر لدى الطفل أداة داخلية قوية للتعلم، ولكنها تكون محدودة. وفي هذه المرحلة لا يتجاوز الطفل ببصره الأدوار الفردية إلى رؤية أكثر عمومية للمواقف الاجتماعية. وكل ما يحاوله الطفل هو أن يقوم بأدوار آخرين مهمين شاهدتهم عن قرب أو عن بعد (وسائل الاعلام). وفي هذه المراحل المبكرة من التعلم يعرف الطفل بعض الأجزاء الهامة لكل دون أن يلم بالكل إماماً كافياً.

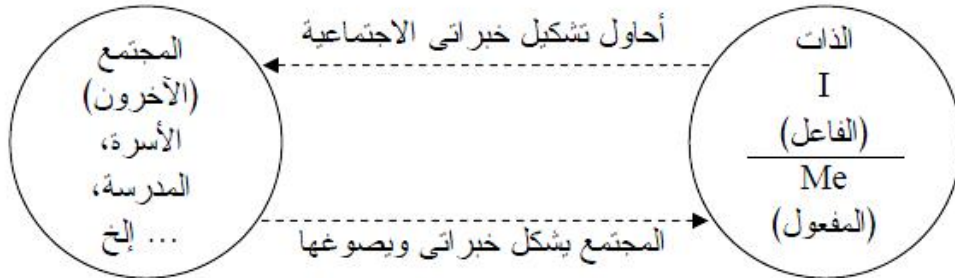
وتشهد المرحلة الثانية تقدماً مزدوجاً. فالطفل - بلغة ميد - لا بد له أن يلم باتجاهات جميع الآخرين المشتركين في اللعبة أو الموقف. وربما يلعب الأطفال المباراة الجماعية بطريقة سيئة، لأنه لم يتكون لديهم وعي بمختلف الأدوار في الفريق، أو لياقة كافية تناسب الأدوار الأخرى. وبالتدريج يصبح الطفل أكثر وعياً من الناحية الاجتماعية - ليس بالألعاب فحسب - بل وبالمواقف الجماعية الأخرى، مثل تناول الوجبات والخروج للنزهة. ومع ذلك فإن النمو المتكامل للذات لا يتوقف على الوعي بجميع أدوار الآخرين في موقف ما، وإنما يعتمد أيضاً على المقدرة على إدراك أن الجماعة والمجتمع المحلي أو المجتمع ككل يمارس ضبطاً على سلوك أعضائه. وبهذا المعنى أطلق ميد على الجماعة ككل مصطلح الآخر العام Generalised Other. وحينما يتعلم الطفل أن يأخذ في اعتباره اتجاه

الأخر. عندما يصبح عضواً كاملاً في المجتمع. والحقيقة أن ميد يقول نفس ما يقول بارسونز. فكلاهما يعترف بحاجة الطفل إلى أن يتعلم قواعد اللعبة أو قواعد المجتمع. وقد أولى ميد جانباً كبيراً من اهتمامه بقدرة الفرد على أن يلعب اللعبة بنشاط وإبداع. وهذا يتضح من بعض أفكاره التي ناقشها الآن والتي تكمل ما سبق مناقشته.

يقسم ميد الذات إلى الفاعل (الأنا الداخلي I) والمفعول (الأنا الخارجي Me) والأنا هي الجزء الايجابي من الذات، أما المفعول فهو الجزء السلبي، أي هو الجزء الذي يؤثر فيه الآخرون (المهمون والعامون)

شكل (1)

نموذج التفاعلية الرمزية عن التنشئة الاجتماعية



وقد استخدم تشارلز كولي - وهو زميل - ميد مصطلح الذات العاكسة Looking - Glass Self ليصف به كيف أننا نكون انطباعاتاً عن أنفسنا من خلال استجابات الآخرين. وعندما يصبح الفرد واعياً بالجزء السلبي من ذاته (المفعول)، يكون عندئذ قادراً على أن يؤثر في نفسه بالتحكم فيها. وبلغة ميد يصبح الفرد موضوعاً لذاته. ويمتد الوعي الانساني إلى أشياء أخرى وناس آخرين بالإضافة إلى ذات الفرد. واستخدم ميد مصطلح الإيحاء بالإشارة Making Indication

لوصف عملية الوعي. ويمثل الايحاء بالاشارة ركيزة من ركائز عملية صياغة المعاني والافعال عند الانسان.

وقد أكد ميد أكثر من كولي على أن الأنا يمكن أن تتحكم في الذات أو هذا يقول ميد: الأنا تعطي الاحساس بالحرية والمبادأة. ودق أشار ميد إلى أن الأنا الديناميكية غالباً ما تغطي على الجزء السلبي (الامتثالي) في الناس المبدعين، مثل الفنانين والموهوبين في الالعب الرياضية، ولكننا نمر جميعاً بلحظات من الابداع (أو لحظات نشعر فيها بالابداع) وقد قدم ميد إسهاماً رائعاً إلى العلم الاجتماعي من خلال إطاره التحليلي، الذي يمكن أن نرى فيه الفاعل الاجتماعي يتصرف بطريقة لايمكن التنبؤ بها، ولا نتيقن من تداعياتها في الغالب.

ويتضح وعي ميد بكل من القيود المفروضة على التفاعل الاجتماعي والابداع في من تحليله للغة، وهو أحد الملام المحورية للتفاعلية الرمزية. واللغة هي المحرك الرئيسي للاتصال الاجتماعي، وهدفها هو التعبير عن المعنى. ويكون الطفل الصغير في بداية حياته مجرد موضوع للاتصال اللغوي، ولكنه يبدأ بالتدرج في استخدام اللغة لأغراضه الخاصة. وقد رفض ميد بشدة الفكرة القائلة بأن اللغة ببساطة هي ضرب من ضروب التقليد (باستثناء ما يحدث مع البيغاء) فكل المعاني تقريباً التي يبتغيها الفرد للتعبير متاحة في مفردات معظم اللغات. ومع ذلك فإن العلماء والشعراء - رغم أنهم يتحركون في حدود المتاح من المعنى واللغة - يبتدعون كلمات وصياغات لغوية جديدة. وهذا هو الهدف من اللغة، أي أنها توفر الرمزية الدالة على معنى. وتظهر رموز لفظية جديدة عند الحاجة إليها.

ونظراً لأن الاهتمام الرئيسي لمنظري التفاعلية الرمزية ينصب على الاتصال الدال على المعنى، فإنهم يولون اللغة جل عنايتهم. ويؤكد هؤلاء المنظرون مراراً وتكراراً على أن الناس - بواسطة اللغة - يتفاوضون حول الادوار الاجتماعية المتعددة المتوقع منهم القيام بها. وهذا يعني أن هؤلاء الناس

يتفاوضون مع الآخرين خاصة في مواقع السلطة - حول كيفية قيامهم بأداء هذه الأدوار على نحو تام.

وهذا ما يقودنا إلى مفهوم النظام التفاوضي Negotiated Order فعلى سبيل المثال يستطيع بعض الطلاب أو العمال أن ينجزوا أعمالاً أقل من أقرانهم دون أن ينالوا عقاباً؛ أنهم تمكنوا بمرور السنوات من التفاوض مع رؤسائهم على مستوى أدنى من الانجاز. وربما يكون هناك آخرون حاولوا ذلك، ولكنهم فشلوا لسبب أو لآخر. ومن هنا يعكس النظام الموجود الجوانب المركبة والتفاوضية للتفاعل. وعلى نحو مماثل لاحظ منظروا التفاعلية أن مختلف الافراد يفسرون نفس الدور بطرائق مختلفة، وينظر هؤلاء المنظرون إلى الأدوار على أنها أقل تماسكاً مقارنة بما يدعيه الموظفون، ويمكن أن نتحقق من ذلك بإلقاء نظرة على حجرة الدراسة أو قاعة المحاضرات حيث نجد أن دور الطالب يمكن تفسيره بطرائق عديدة: مختلفة ومتعارضة.

وقبل أن نختم هذا الجزء نحتاج إلى توضيح مدخل منظري التفاعلية إلى تحليل النظم الاجتماعية. فالنظام - بالنسبة لهؤلاء المنظرين - ليس شيئاً منفصلاً عن الناس الذين صاغوا بناءه، وهو - أي النظام - محصلة للتفاعل، وهذا ينطبق على الأسرة والمدرسة وجماعة الاقران. وأي نظام يمكن النظر فيه - في حقيقة الامر - على انه محصلة للتفاعل بين الناس الذين يتألف منهم.

ويمكن الكشف عن ماهية نظرية التفاعل الرمزي المعاصرة بالاستشهاد بالاستعارات التي استعان بها منظرو هذه النظرية لوصف الحياة الاجتماعية. فقد قارن ارفنجج جوقمان التفاعل الاجتماعي بالأداء المسرحي، وأعطى إيريك بيرني - مؤسس التحليل النفسي للتفاعل - عنواناً لأحد مؤلفاته "الالعاب التي يلعبها الناس People Play Games وبالنسبة لجوفمان يكمن الفرق الرئيسي بين أداء الفعل في المسرحية وأداء الفعل في الحياة في أن هناك مجالاً لتفسير الدور في

الحياة ذاتها. فالفاعل الاجتماعي غير مقيد بنص، ويمكن له أن يرتجل بطلاقة. ويعترف جوفمان أن التغيير الاجتماعي يعتمد اعتماداً كبيراً على مثل هذا الارتجال الابداعي. ومع ذلك يبقى لتشابه الاساسي موجوداً بين المسرح والحياة. وقد أتخذ جوفمان لنفسه نموذجاً مسرحياً للتفاعل الاجتماعي. فالحياة الاجتماعية - شأنها في ذلك شأن المسرحية - يتم تأليفها.

المصطلحات المهمة الواردة في هذا الفصل:

الوظيفية Functionalism

توجه نظري ينهض على فكرة أن الواقع والاحداث الاجتماعية يمكن تفسيرها على الوجه الافضل على أساس الوظائف التي تؤديها، أي الدور الذي تؤديه من أجل تحقيق استمرار المجتمع واستدامته.

الانثروبولوجيا Anthropology

أحد العلوم الاجتماعية الذي يرتبط بعلم الاجتماع ارتباطاً وثيقاً، ويهتم بدراسة الثقافات التقليدية وتطور النوع البشري.

الوظائف الظاهرة: Manifest Functions

وظائف جانب أو نمط من النشاط الاجتماعي تكون معروفة للأفراد الذين ينخرطون في موقف معين في الحياة الاجتماعية، وتكون مقصودة في حد ذاتها.

الوظائف الكامنة Latent Functions

الآثار الوظيفية التي تتحقق عن غير قصد، أو حتى بدون وعي من جانب أفراد النسق الاجتماعي الذي تحدث فيه.

الاختلال الوظيفي : Dysfunctions

المؤثرات الاجتماعية التي تعمل على تفكيك أو إيقاع الفوضى في البناء الاجتماعي القائم.

البنوية: Structuralism

منحى نظري، اشتق أساساً من دراسة اللغة، يهتم بتحديد الابنية في الانساق الثقافية أو الاجتماعية.

التفاعلية الرمزية: Symbolic Interactionism

منحى نظري في علم الاجتماع تم تطويره على يد عالم الاجتماع جورج هربرت ميد، وهو منحى يولي اهتماماً كبيراً لدور الرموز واللغة كعناصر اساسية في مجمل التفاعل البشري.

الرمز: Symbol

عنصر يمثل عنصراً آخر أو يشير إليه، كما في حالة العلم الذي يرمز إلى الامة

الماركسية: Marxism

كيان من الفكر يشتق عناصره الاساسية من افكار كارل ماركس.

الكابح الاجتماعي Social Consrtaint

مصطلح يشير إلى الحقيقة التي مؤداها أن الجماعات والمجتمعات التي تنتمي إليها تمارس تأثيراً فعلياً يسهم في تشكيل سلوكنا. ولقد اعتبر دور كايم أن الكابح الاجتماعي يمثل أحد الخصائص المميزة للظواهر الاجتماعية.

الترشيد (النمو العقلاني) Rationalization

مفهوم استخدامه ماكس فيبر ليشير إلى العملية التي من خلالها تصبح أساليب الحساب الدقيق والتنظيم – بما في ذلك القواعد والاجراءات المجردة – هي الحاكمة للعالم الاجتماعي.

الحرمان النسبي: Relative Deprivation

الشعور بالحرمان نسبة إلى جماعة يقارن الفرد نفسه بها.

التفكير المضاد للبداهة: Counter Intuitive Thinking

التفكير الذي يوحي بأفكار مناقضة للفروض أو المقدمات البديهية.

الفصل الرابع طبيعة الشخصية العراقية

(صراع البداوة والحضارة، ازدواجية الشخصية - التناثر الاجتماعي -
الافوية) هذه الرباعية هي مفاتيح الشخصية العراقية التي ذكرها الدكتور علي
الوردي والتي لن تتغير لحد الآن على الاقل - لأنها نتيجة تراكمية لمئات السنين،
صراعات دموية وهبات وعطايا لاتقدر بثمن ومناصب لايمكن التفريط بها أو
التنازل عنها بسبب بسيط أن حقيقة المجتمع العراقي حسب قول علي الوردي ((أن
الضمير صوت المجتمع...)) هذه هي حقيقة المفاهيم الاربعة التي سوف نتناولها
في دراستنا للمجتمع العراقي.

إن الظروف التي عاشها المجتمع العراقي في الخمسينات من القرن
الماضي كانت السبب الرئيس وراء هذه الآفات التي نخرت الشخصية العراقية
وصيرتها شخصية هامشية قياساً للإرث الحضاري والديني الموروث والمكتسب
في أرض الرافدين.

أولاً: الصراع بين البداوة والحضارة

الصراع: هو علاقة عدائية بين أفراد جماعات من المجتمع حيث يكون هناك
اصطدام أو تعارض في المصالح بين شخصين أو جماعتين أو أكثر.

ابن خلدون:

شبه ابن خلدون المجتمع (الدولة) بالكائن الحي الذي تسير دورة حياته
بشكل تطوري تبدأ من مرحلة الطفولة إلى المراهقة ثم الرشد والشيخوخة ثم
الهرم. كذلك تنشأ الدولة حضارياً وتكون في تطور وتقدم لكنها قد تنتهي وتتلشى

بسبب الضعف أو الانهيار أو الهزيمة. نتيجة سيطرة دولة أخرى ونشوؤها بدلاً منها.

من هذا المنطلق ظهرت نظرية ابن خلدون في الصراع بين البداوة والحضارة، حيث يمتاز المجتمع البدوي بالفضائل الحسنة مثل الشجاعة الولاء للقبيلة لكن في نفس الوقت يحتاج إلى الغزو والنهب من أجل الحفاظ على حياته ودوام بقائها. لذلك تتجه القبائل البدوية إلى الهجوم والغزو في المناطق الحضرية والسيطرة على الملك وسقوط الدولة.

لذا ارجع ابن خلدون نشأة الحياة الاجتماعية إلى ثلاثة عوامل منها:

١- ميل الفرد ورغباته الخاصة تمثل أحد أسباب نشوء المجتمع مثل (الزواج، السيطرة، التفوق..).

٢- الضرورة الاقتصادية إذ لا يستطيع الإنسان الحصول على حاجاته ومتطلباته الضرورية إلا من خلال الصراع الدائم لذلك يتجه إلى الاجتماع والتعاون للتصدي للعدو.

٣- الشعور بالانتماء وهو شعور تلقائي في النفس البشرية يدفعها إلى البحث عن الاستئناس بأخيه الإنسان وهذه الظاهرة النفسية تعد عاملاً هاماً في قيام الحياة الاجتماعية.

أما ما يخص دراسة علي الوردي (الصراع بين البداوة والحضارة) يمكن توضيحها بالآتي:

أثبتت أو برهنت الكثير من الدراسات لبعض الباحثين من خلال دراستهم المجتمع العراقي على أنه توجد فيه ظاهرة اجتماعية أطلق عليها (ظاهرة الصراع بين البداوة والحضارة) ذلك لأن العراق من أقدم الحضارات في العالم وقد شاركته في هذه المسيرة مصر وظلت حضارة العراق تزداد حيناً بعد حين إلى أن تأسست

الدولة العباسية وأصبح العراق مركز الحضارة العالمية حتى صارت بغداد عاصمته والذي تميز بالتراث الحضاري.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن العراق واقع على منبع الجزيرة العربية وهي تحتوي على فيض من البداوة. فالمجتمع العراقي يتلقى المواجهات البدوية واحدة بعد الاخرى فكانت تلك الموجات آتية عن طريق الفتوحات العسكرية والبعض الآخر يأتيه عن طريق التسلسل التدريجي وكلا هذين النوعين من الموجات لابد أن يؤثر في المجتمع العراقي قليلاً أو كثيراً فنتشر فيه القيم البدوية وتحاول التغلغل في مختلف فئاته وطبقاته.

هنا نجد أن المجتمع العراقي واقع بين نظامين من القيم الاجتماعية قيم البداوة القادمة إليه من الصحراء المجاورة وقيم الحضارة المنبعثة من تراثه الحضاري القديم. هذا يصبح المجتمع العراقي في حاله من الصراع الاجتماعي والنفسي على توالي الاجيال هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لا يستطيع أن يطمئن على قيمه الحضارية زمناً طويلاً لأن الصحراء تمدّه بين كل آونة وأخرى بموجات التي تقلق طمأنينته الاجتماعية والنفسية فضلاً عن ذلك لا يستطيع أن يكون بدوياً كأبن الصحراء لأن الحضارة المنبعثة من وفرة مياهه وخصوبة أراضيه تضطره إلى تغيير القيم البدوية القادمة إليه أو الوافدة لكي يجعلها ملائمة لظروفه الخاصة.

طبيعة التعاكس

مما يلفت النظر في أمر البداوة والحضارة أنهما متعاكسان في كثير من قيمهما الاجتماعية لأن الهدف الاساسي الذي تسعى نحوه البداوة هو على النقيض مما تسعى إليه الحضارة ذلك لوجود ناحيتان يتضح فيهما هذا التعاكس أو التناقض بين الحضارة والبداوة هما (الدولة والاحتراف) فمن الناحية الاولى (الدولة) نجد

أن (البدواة) ميالة بطبيعة تركيبها الاجتماعي نحو النفرة من الدولة ونحو التهرب من الخضوع لها إذ أن العصبية القبلية في البدواة تحل محل الدولة وتقوم بوظيفتها لأن الفرد البدوي يعتز بقييلته لانتهاء بقائه وحفظ كرامته أما الدولة في نظره فليست سوى نظام للذل ودفع الضريبة وأنها الاعتراف بالعبودية.

أما (الاحتراف) فيقصد به اتخاذ حرفة أو مهنة يكسب منها رزقه لكن البدوي يعتبر الاحتراف ذلة ومهانة لأنه يعتمد في رزقه على الغزو والنهب.

أما بالنسبة (للحضارة) (فالدولة) أهمية لأنها تتميز بوجود الدولة فيها بينما تتميز البدواة بوجود العصبية القبلية فيها فالدولة بالنسبة للحضارة دور كبير لأنها تعنى بشؤون الانتاج الزراعي والتجاري والصناعي وتوفير فرص العمل للأفراد وحيث تنمو الحضارة وتزدهر.

على الرغم من فترات الازدهار في المجتمع العراقي إلا أنه كان يمر بين فترات أخرى من النزاع والفوضى إذ أن من العوامل التي ساعدت على ذلك هو أن العراق واقع على حافة الصحراء حيث لا يفصل بينهما فاصل من بحر أو جبل ولهذا كانت الصحراء تمد العراق بالموجات البدوية حيناً بعد حين وهذه الموجات لا تتيح للعراق فرصة قيام دولة ثانية فيه زمناً طويلاً وهذه الصحراء أطلق عليها الجزيرة العربية أو جزيرة العرب.

مقارنة وتصنيف

يمكن القول بأن الصراع بين البدواة والحضارة تختلف في أنماطها وتفاعلها من قطر إلى آخر في الوطن العربي لذلك تصنف الاقطار العربية إلى ثلاثة أصناف رئيسية:

١- الصنف الاول: الذي يشبه العراق شبةً كبيراً من حيث وجود الحضارة والبدواة فيه فتسيطر عليه الحضارة والبدواة تارة أخرى يشمل هذا الصنف

الاقطار العربية (الاردن - الشام - المغرب - تونس - الجزائر). ويكون هذا الصراع بين البداوة والحضارة.

٢- الصنف الثاني تكون فيه البداوة أشد تأثيراً من الحضارة ولهذا فالصراع يكون ضعيف لا يظهر إلا في نطاق ضيق جداً ويشمل هذا الصنف (ليبيا - الجزء الصحراوي من الجزائر - عمان). من الخصائص هذه الاقطار أنها قليلة السكان نسبياً وأكثرهم يكونون من البدو.

٣- الصنف الثالث: تكون الحضارة فيه أقوى تأثير من البداوة وأكثر تغلغلاً في الحياة الاجتماعية ومن هذه الاقطار (مصر) ولاسيما الوجه البحري منها أما الوجه القبلي فهو صعيد مصر.

٢- التغير الاجتماعي والتناثر:

لدراسة التغير الاجتماعي أهمية كبيرة تتمثل في التعرف على

- ١- الخصائص المختلفة لكل مرحلة مر بها المجتمع.
- ٢- المقارنة بين ما حققه المجتمع من تحول وتقدم
- ٣- معرفة أهم نتائج آثار التحولات والتغيرات في المجتمع (سواء كانت مادية أو اجتماعية أو ثقافية أو علمية).

فالتغير الاجتماعي

هو كل صور الاختلاف والتحول والتباين التي شهدتها مجتمع معين خلال فترة زمنية .

مثال ذلك: التغير الذي حدث في المجتمع العراقي سنة ٢٠٠٣ بعد سقوط النظام تحول المجتمع من نظام دكتاتوري إلى ديموقراطي.

عوامل التغيير الاجتماعي هناك مجموعة من العوامل ساعدت على تغيير المجتمع:

- ١- القادة والعلماء والمفكرين مثل نابليون وابن خلدون ودوركايم.
- ٢- التنظيم الديموقراطي: تعدد الاحزاب وحرية الصحافة وحرية التعبير عن الرأي يتيح الفرصة للمجتمع أن يكون ديناميكياً متفاعلاً.
- ٣- العوامل الاقتصادية: مثل التكنولوجيا والعلم والاختراعات التي سهلت الاتصال بين افراد المجتمع.
- ٤- التخطيط العلمي، سواء كان في الجانب الاقتصادي أو الصحي أو التربوي مثل / الخطة الخمسية للتنمية الاجتماعية والاقتصادية والتربوية.

أنماط التغيير الاجتماعي يتكون من نمطين هما:

- ١- نمط داخلي / مثل التغيير في القرارات الادارية والتعليم
 - ٢- نمط خارجي/ نتيجة الانفتاح واتصال المجتمع بغيره من المجتمعات مما يؤدي إلى الاختراع والاكتشافات العلمية المختلفة.
- كذلك أن أنماط التغيير الاجتماعي تمر بمراحل من أهمها
- ١- التغيير البطيء مثل التغييرات التي حدثت في العراق والتي بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر واستمرت حتى الحرب العالمية الاولى كان من مظاهرها تتالي قوة الحكومة التي هي في الواقع محور الحضارة وركيزتها.
 - ٢- مرحلة التغيير السريع : بدأت بعد الحرب العالمية الاولى واستمرت حتى السبعينيات وارتبطت بتغييرات عميقة الاثر في المجتمع العراقي في عهد الملك فيصل الاول.

التناشز الاجتماعي

هو الصراع أو التناقض في القيم الاجتماعية

من الملاحظ أن التناشز الاجتماعي يرافق كل متغير وتطور يحدث في المجتمعات. لذلك نجد أن تغيرات هائلة طرأت في المجتمع وانعكست آثارها في الحياة الاجتماعية بعض هذه التغيرات كان يجري ببطئ أو بانتظام. ومن خصائص التغير البطيء أن المجتمع يمكن أن يتكيف معه بمرور الايام، فلا يظهر صراع عنيف أو تناقض بين القديم والحديث.

لكن ثمة تغيرات أخرى تجري بسرعة غير متلائمة مع سرعة الانتقال الاجتماعي، ومثل هذه التغيرات لايؤثر في جميع الكيان الاجتماعي على درجة واحدة، فكثيراً ما يكون هناك جزءان مترابطان، ثم يحدث التغير في أحدهما دون أن يحدث في الآخر، أو قد يحدث التغير في احدهما أسرع مما يحدث في الآخر فيؤدي ذلك إلى صراع أو توتر أو تناقض بينهما وهذا هو المراد بالتناشز الاجتماعي.

ويمكن توضيح التناشز الاجتماعي بالامثلة الآتية:

يظهر التناشز عندما لا يستطيع الفرد أن يوفق بين نسختين متناقضتين من القيم الاجتماعية حين يظهر التعارض في السلوك والمواقف والتصرفات وبخاصة (النزعة الجدلية) ففي الوقت الذي يعتقد فيه المرء بالديموقراطية ينادي بها عندها يحتاج اليها، في حين التناقض يظهر عندما يجد نفسه ملتزم بالقيم والتقاليد العائلية سوف يبتعد عن ممارستها.

كذلك بالنسبة للموظفين في مؤسسات الدولة يلتزم بالاجراءات القانونية والادارية وفي بعض الاحيان يجد نفسه بعيداً عنها عند مراجعة اقربائه.

٣- ازدواجية الشخصية بين المنظور النفسي والمنظور الاجتماعي.

ان الازدواج في الشخصية من الناحية النفسية مرضاً نادراً يصيب الافراد من جراء عوامل وظروف يتعرضون لها، وهو شذوذ في تكوين الشخصية يسمى (انقسام أو انقسام الشخصية) على سبيل المثال / فرد يعاني من انقسام الشخصية تكون له ثلاث شخصيات:

الاولى: تكون شخصية الفضيلة والامانة.

الثانية: شخصية الاستقلالية والطموح.

الثالثة: شخصية غير متزنة تتميز باللهو واللعب.

أما ازدواج الشخصية بالمعنى الاجتماعي فهو ظاهرة اجتماعية يحدث لدى بعض الافراد نتيجة الصراع الثقافي أو ما يسمى بالثنائية الثقافية ومعناها عندما يتعرض الفرد لمطالب ثقافات اجتماعية متناقضة لاسيما في مراحل نموه الاولى قد لايمكن من تكوين شخصية متكاملة لذا يصبح ذا شخصية مزدوجة.

وبذلك يمكن تعريف الشخصية الازدواجية هي: انشطار وعي الشخصية للفرد إلى جزئين يعيشهما الفرد. وبأوقات مختلفة وعلى التوالي، أحدهما تظهر والاخرى تكون مضمورة.

من المعروف أن ازدواج الشخصية هي حالة مرضية نفسية تؤثر سلباً في الوظائف السلوكية، والانفعالية، او الوظائف العقلية.

ولكن ما نلاحظه اليوم أن هذه الحالة من الاضطراب النفسي أصبح كأنما سمة من سمات الشخصية الطبيعية حيث لم يعد حالة اضطراب نفسي متميز المظاهر والابعاد بل أصبح شيئاً طبيعياً يمارسه الفرد في حياته اليومية بشكل طبيعي. اي أن هذا الفرد السوي يمارس الشخصية الازدواجية عن وعي تام أو غير وعي.

هناك حالات لازدواج الشخصية لدى بعض الافراد هي:

- ١- يظهر ويتحدد بشخصيتين تظهر على سلوك الفرد الواحد.
- ٢- تظهر وتكون الشخصيات منفصلة واحدة عن الاخرى ولها استقلاليتها.
- ٣- كل شخصية تظهر بالتعاقب لدى الفرد ولها اسلوبها الخاص.

ويمكننا القول أن هناك الكثير من الافراد الذين يعيشون حياة طبيعية ويمارسون أدوارهم في الحياة وهم بشخصيتين متناقضتين تماماً وما كان يحدث من تناقض بين السلوك والافكار لدى الكثير من الذين تراهم ونسمعهم وقد أصبح الان تغيراً أو تناقضاً في شخصياتهم وليس بين افكارهم وسلوكهم، فهم اليوم يتكلمون ويصرحون، وبعد فترة زمنية بسيطة ولا نقول طويلة نجدهم بشكل آخر. يتصرفون بطريقة متناقضة لما قالوه أو فعلوه ان هذا الازدواج موجوداً لدى بعض أفراد المجتمع العراقي نتيجة الضغوط التي تعرضوا لها في حياتهم اليومية، وكما يقول الدكتور (الوردي) أن الفرد العراقي ذو شخصيتين فهو يعمل بإحدى الشخصيتين ينسى ما فعل آنفاً بالشخصية الاخرى.. وذلك مرده إلى ظهور نفس أخرى فيه لاتدري ماذا قالت النفس الاولى وماذا فعلت)).

وبذلك يكون قد عمم حالة مرضية اكلينيكية على شعب بأكمله.

لكن الفكرة ترجع إلى (ابن خلدون) وقد استعارها (الوردي) لكنه أدخلها ضمن نسيج الشخصية الفردية بينما ابن خلدون أدخلها ضمن نسيج المجتمع كصراع بين نسختين حضاريين متعارضين وضاعطين على المجتمع. هما: البداوة والحضارة، بينما قال علي الوردي بأنها تتبع داخل الشخصية العراقية وتصبغ المجتمع بصبغتها وأن أسبابها اجتماعية وسياسية.

فهي ظاهرة اجتماعية ناتجة عن وقوع المجتمع العراقي تحت تأثير نسختين متناقضتين من القيم الاجتماعية، حيث يضطر بعض الافراد للاندفاع وراء نسق قيمي تارة ووراء نسق قيمي آخر تارة ثانية. ومصدر التناقض والصراع في

شخصية الفرد العراقي وازدواجيتها. أن الفرد العراقي من أكثر الناس هياماً بالمثل العليا ولكنه في الوقت نفسه، من أكثر الناس انحرافاً عنها في واقعه الاجتماعي.

٤ - الانومي أو الاضطراب الاجتماعي

أول من استخدم هذا المصطلح عالم الاجتماع الفرنسي، "إميل دوركايم". وكان يعني به أنماط العلاقات الاجتماعية التي لا تتوافر فيها العوامل والظروف والشروط، التي تحقق السعادة والرضا والطمأنينة للإنسان. ذلك أن سعادة الإنسان ورضاه يتحققان عندما يكون السلوك الإنساني متمشياً ومنسجماً مع المعايير السائدة في المجتمع، خصوصاً عندما تشكل المعايير الاجتماعية نظاماً متكاملًا خالياً من الصراعات والتناقضات. ولكن تناقض المعايير الاجتماعية واضطرابها يؤثر على سلوك الأفراد تأثيراً سلبياً، ومن ثم، يؤدي إلى ظهور ما يُسمى بظاهرة الاضطراب الاجتماعي، أو التفسخ الاجتماعي. أي أن الاضطراب الاجتماعي هو حالة من التخبط وانعدام الأمن وفقدان المعايير، الأمر الذي تصبح معه التمثلات الجمعية للمعايير منهارة تماماً.

وبهذا المعنى يُفترض في حالة الاضطراب الاجتماعي وجود ظرف مسبق يكون فيه السلوك محددًا معيارياً، ثم تتسبب أزمة اجتماعية أو ظروف معينة في قلب التوازن. وانتشار القلق لدى عدد كبير من الناس، يؤدي إلى زلزلة القوة القاهرة للتقاليد وخلخلة المعايير وإشاعة الاضطراب على نطاق واسع. ويزيد من ذلك زيادة مستوى الخصوصية في المجتمع الجماهيري، وفقدان المودة التي كانت إحدى خصائص الجماعات الأولية القرابية.

ويُستخدم هذا المصطلح بمعانٍ ثلاثة في التراث الاجتماعي السائدة في علم

الاجتماع، هي:

١. التفكك الشخصي، خاصة النوع الذي يؤدي إلى عدم سيادة القانون والافتقار إلى التوجيه الرشيد للأفراد.

٢. الموقف الاجتماعي، الذي يشهد صراعاً بين المعايير وبين الجهود التي يبذلها الفرد للامتثال لها.

٣. الموقف الاجتماعي، الذي تتعدم فيه المعايير تماماً نتيجة لتغيرات اجتماعية وثقافية، تقلب التوقعات السلوكية العادية للفرد.

إن "الاضطراب" أو "التفكك الاجتماعي" هو حدوث حالة من الضعف في مقدرة المجتمع على تنظيم وتوحيد – ومن ثم ضبط – الكيفية التي تتحقق بها الرغبات وتُشبع بها الغرائز والنزوات الطبيعية لدى مختلف الأفراد. وقد أشار "روبرت ميرتون" في مقالته التقليدية عن "البنية الاجتماعية والتفكك الاجتماعي and Anomie Social Structure"، التي كتبها عام ١٩٣٨، إلى ردود فعل الفرد وتكيفه مع الضغوط الاجتماعية التي تفرزها ثقافة مجتمعه، والتي تنبثق عن البنية الاجتماعية. ذلك أن البنية الاجتماعية لبعض المجتمعات تضع الحدود والحوازر أمام بعض فئات المجتمع، لكي تمنعها من تحقيق رغباتها وتحد من إشباع غرائزها – أو على الأقل تجعلها صعبة التحقيق والمنال – بدرجة غير متكافئة لدى جميع الأفراد والجماعات. ويؤدي هذا إلى قيام نماذج من البنية الاجتماعية داخل المجتمع تحت هذه الفئات وتفسح المجال أمامها – أو أمام بعض منها على الأقل – لإتباع وسائل غير مشروعة لتحقيق رغباتها وإشباعها، حين لا يمكن تحقيق ذلك بالوسائل المشروعة.

ولكي يشرح "ميرتون" ذلك، ميّز بين الغايات والوسائل في أي مجتمع، ويُقصد بالغايات الأهداف المشروعة لجميع أعضاء المجتمع، وتتكامل هذه الأهداف بدرجة كبيرة أو صغيرة كلٌ مع الأخرى، وتتنظم في نوع خاص من

الترتيب الهرمي. أما الوسائل النظامية، فهي الوسائل أو الأساليب المتفق عليها لتحقيق تلك الأهداف.

وهنا يرى "ميرتون" أن الامتثال يحدث عندما تتفق الأهداف مع الوسائل النظامية.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو: كيف يحدث الاضطراب والفوضى داخل المجتمع؟ يرى "ميرتون" أن ذلك يحدث عندما تؤكد الثقافة السائدة على أهداف محددة، ولا يستطيع كثير من الأفراد الوصول إلى الوسائل المشروعة لتحقيق هذه الأهداف. فعلى سبيل المثال، تتمسك الثقافة بأن كل أفراد المجتمع يجب أن يتعلموا، في حين يؤكد الاقتصاد على أن الأفراد يجب أن يظلوا يعملون طوال ساعات الاستيقاظ لكي يستطيعوا الكسب من أجل العيش. النتيجة الطبيعية، إذًا، تتمثل في سلب الأفراد القدرة على الوصول إلى أهداف التعليم. وهذا معناه أن افتقاد التكامل بين الوسائل والأهداف في المجتمع، يؤدي إلى حالة من الاضطراب أو التفسخ الاجتماعي.

ويسعى كل فرد إلى التكيف مع ثقافة مجتمعه، إلا أن بعضاً من الأفراد قد لا يأبهون ببنائها أو نظامها، أو لا يهتمون بقواعدها القانونية والأخلاقية. كما قد لا يأبه الكثيرون أو لا يعيرون كثيراً من الاهتمام إلى الكيفية التي يستخدمونها في تحقيق أهدافهم؛ فيؤدي ذلك إلى استخدام الوسائل غير المشروعة وإتباع طريق الانحراف لتحقيق الأهداف، ما يؤدي إلى حدوث الاضطراب الاجتماعي داخل المجتمع. وهذا يقود الأنظمة الاجتماعية ويوجهها لكي تمارس ضغطاً معيناً على هؤلاء الأفراد، حتى يتمثل سلوكهم لما هو متعارف عليه اجتماعياً.

أسباب الانحراف ودوافعه

- ١- سوء البيئة والتنشئة الاجتماعية: يتعلم الفرد سلوكه من البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها.
 - ٢- فقدان المعيارية (الانوميا الاجتماعية): ينتشر الانحراف في المجتمع عند غموض أهدافه فيحاول الافراد تحقيق أهدافهم بطرق غير مشروعة لصعوبة تحقيقها بالطرق السليمة.
 - ٣- العزلة الاجتماعية: ضعف القيم الاجتماعية وعدم الالتزام يؤدي إلى عدم الانتماء لجماعة اجتماعية وعدم المشاركة الاجتماعية ويسمى ضعف الارتباط بالآخرين فيخرج الفرد عن قيم ومعايير المجتمع.
 - ٤- عدم المساواة (التنافس غير المتكافئ): يحدث عند كسب التنافس بطرق غير مشروعة مثل التمييز أو عدم التكافؤ أو اللجوء للطرق التي لاتقرها معايير المجتمع.
- مما يردي إلى اصابة الفرد بالاحباط والانحراف في بعض الاحيان.
- مثال ذلك ؟ آثار الاحتلال على منظومة القيم الاجتماعية في المجتمع العراقي والتي تتمثل بالآتي:
- ١- غياب الترابط الاجتماعي في المنطقة الواحدة: إذ عرف المجتمع العراقي تاريخياً بكثرة تفاعل اعضاءه كمجتمع كبير وكمجتمعا فرعية صغيرة على صعيد المناطق بمختلف مسمياتها، كيف أن الشخص الغريب لم يكن يستطيع الدخول إلى منطقة أو حملة دون أن يتعرض للسؤال من أبناء المنطقة وغير ذلك. وكل هذه التقاليد القائمة على قيم التآزر والتآلف بين الناس تكاد تتلاشى على خلفية الشرخ الذي خلفه الاحتلال وتعرض له المجتمع العراقي.

- ٢- اضطراب القيم الاسرية: عرفت الاسرة العراقية بأنها أسر محافظة متماسكة لكن بعد الاحتلال جعل تغير كبير بسبب البث الفضائي والهواتف الجواله والانترنت وسوء استخدامها مما أدت إلى فقدان الترابط الاسري.
- ٣- فقدان قيمة الاحترام في المؤسسات التربوية والتعليمية / مثل تجاوز التلاميذ على معلمهم والطلبة على اساتذتهم وأصبح أمراً طبيعياً.
- ٤- الغش والفساد وغيرها من الآثار السلبية التي أدت إلى انهيار منظومة القيم الاجتماعية.

البيئة الاجتماعية ووظيفتها

يرجع الفضل إلى البيئة الاجتماعية في تنشئة الفرد وتوجيهه والإشراف على سلوكه وتلقينه ما وصلت إليه من ثقافة وتحضر. أي أنها لا تقتصر على أن توفر له حاجياته الضرورية ولكنها تؤدي له أخطر وأهم وظيفة وهي نقل التراث الاجتماعي والثقافي. ويبدو ذلك واضحاً في حالة الطفولة. لأن الطفل يولد وهو عبارة عن كتلة من الغرائز والاستعدادات. ووظيفة البيئة الاجتماعية (ممثلة في الاسرة) أن تعلمه لغاتها وتاريخها وعاداتها وعرفها، وتقاليدها وطقوسها ومعاييرها في الاخلاق والاذواق والآداب العامة ومظاهر السلوك الخاص والعام وما إلى ذلك من الامور. حتى تخلق منه كائناً اجتماعياً يستجيب لمؤثرات البيئة ويخضع لاحكامها ونظمها. فالاسرة في ضوء هذا الاعتبار؛ هي الوسيط الاول بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه، وهي نقطة التحول في تاريخ الحضارة؛ لأنها تقوم بأول عملية اجتماعية وهي عملية التنشئة الاجتماعية بمعنى أنها تروض الطفل على أن يكون كائناً اجتماعياً لأنه لا يولد اجتماعياً؛ ولكنه يولد مزوداً بالقدرات والاستعدادات التي تخلق منه كائناً اجتماعياً فلا بد من أن يروض على أن يكون كذلك.

فإلى الأسرة يرجع أكبر الفضل في تلقين النشئ أصول التراث الاجتماعي وترويضهم على الخضوع والطاعة لأحكامه ووصاياه حتى تتأكد قدسيته وجلاله في قلوبهم وأفئدتهم لا يخرجون عما يرسمه لهم من حدود وما يقرره لهم من أوضاع وقوالب. وتشارك مع لاسرة في أداء هذه الوظائف، الجماعات ذات الصلات المباشرة مثل روابط الجوار (الجيرة)، والحلقات التي يجتمع فيها الاطفال للعب واللهو؛ وروابط الصداقة بينهم؛ ثم المدرسة والبيئة الخارجية (باعتبار أن الاسرة هي البيئة الداخلية بالنسبة للطفل).

وكلما نما الطفل وكبر؛ زاد تكيفه بالوسط الجمعي؛ واستطاع هضم المقومات الاساسية لتراثه الاجتماعي؛ واستساغة ما ينطوى عليه من أحكام وإلزام. ومن ثم يشعر من تلقاء نفسه بأنه تحرر من ريقة الجماعة. بيد أن هذا التحرر فقط وذلك لأن قوة الجماعة رابضة وراء هذا التحرر ومستعدة للظهور والخروج من حالة كمونها إذ ما حدثته نفسه بالخروج على ما يقتضيه التراث الاجتماعي.

وغنى عن البيان أن الفرد في مراحل نشأته الاولى يكون متبرماً بقيود البيئة الاجتماعية وحانقاً على بعض أوضاعها، ويضيق ذرعاً بما تفرضه عليه. وذلك كله لأنه لم يألفها بعد. ولكن بعد أن تتم عمليات التنشئة الاجتماعية والتكيف والتمثيل وما إليها؛ يغدو الشخص نفسه أحرص ما يكون على تراثه وأشد ما يكون تقانياً في الذود عنه. وهذا يدلنا على أن الفرد يمر في حياته الاجتماعية بمرحلتين: المرحلة الاولى يكون الفرد فيها صنيعة المجتمع وآلة حية في يد بيئته الاجتماعية تشكله حسبما يقضى به تراثها وحضارتها - والمرحلة الثانية يصبح الفرد فيها عنصراً ايجابياً يضاف إلى المجتمع. فهو مع ارتقائه؛ لايعمل ولا يتصرف بمعزل عن اتجاهات الجماعة ومقومات تراثها الثقافي.

غير أن الدور الذي تلعبه الجماعة ليس مقصوراً على نقل التراث الاجتماعي أي ليس مقصوراً على عملية المواصلات الثقافية؛ فهو أوسع من ذلك نطاقاً. لأن الجماعة تطبع الافراد بمميزات خاصة وتربطهم بعلاقات في غاية التعقيد وتضيف إلى رأس مالها الذي ورثته مكاسب جديدة ومغانم مستمرة بقدر ما توحى به ظروفها وما تتطلبه من مواقف وقيم جديدة. فهي إذن تضيف على الافراد اعتبارات متجددة وتضع أمامهم تجارب تزيد من صقل أفكارهم وشحن هممهم وتنمية شخصياتهم. ومن ثم يلمس الافراد فائدة الخضوع لأحكامها والانضواء تحت لوائها. وغنى عن البيان أن الولاء للجماعة فضيلة سامية أياً كانت طبيعة هذه الجماعة وأياً كان نطاقها. فإن جميع الانماط أو النماذج الاجتماعية تتساوى في ضرورة خضوع الافراد للسنن والاوزاع الاجتماعية.

فلا فرق في هذا الصدد بين قبائل التبت مثلاً وقبائل ميلانيزيا وشعوب انجلترا والولايات المتحدة الامريكية. أن الفرد الذي لا يحترم حقوق وواجبات الجماعة ولا يراعى حرمة تعاليمها وقدسيتها تراثها تصبح حياته الاجتماعية جحيماً لا يطاق؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش بدون أن يتجاوب مع اتجاهات مواطنيه وأفكارهم؛ وبدون أن يدخل معهم في علاقات ومعاملات اجتماعية إرادية أم غير ارادية؛ وبدون أن يتمثل في تصرفاته تجارب الجماعة وحكمتها. فلا يستطيع الفرد إذن أن يعزل نفسه عن الجماعة أو أن ينحرف انحرافاً ظاهراً عن المستويات التي درج عليها الافراد.

وتزيد وظيفة الجماعة أهمية بالنسبة لمركزها الثقافي والحضاري والدولي وتزيد تعقيداً كلما كانت الجماعة أكثر تطوراً وحضارتها أكثر تعقيداً. ويبدو ذلك واضحاً من المقارنة بين مجتمعين أحدهما متحضر وثانيهما متخلف ثقافياً وحضارياً فلاشك أن الوظيفة التي يؤديها المجتمع الاول أشق وأدق من الوظيفة التي يؤديها المجتمع الثاني. وذلك لأن المجتمع الاول ينظوي على مطالب كثيرة

ويزخر بأنماط ثقافية ومثقل بتركة ورثها عن الاجيال ولا بد أن يؤديها إلى الحاضر وإلى المستقبل. أما المجتمع الثاني فأنماطه الثقافية ضيقة النطاق ونظمه محدودة ومطالبه متواضعة. فوظيفته أهون وأبسط وأسهل أداء. ولا ننكر أن الطفل في حدود القبيلة لا يخضع لما يخضع له الطفل الحديث من قيود وروابط وعلاقات اجتماعية؛ ولا يتطلب ما يتطلبه من العناية والتربية والتعليم والاعداد المهني.

ولا ننكر كذلك أن الرجل البدائي يختلف عن الرجل المتحضر في شتى ألوان الحياة وفي مظاهر السلوك وفي مطالب الحياة الخاصة. ويختلف الرجلان كذلك في الوظيفة التي يؤديها كل منهما ومبلغ أهميتها بالنسبة لمركز كل منهما في الحياة الاجتماعية بالاجمال.

ويختلف تأثير الجماعة على حياة الفرد وعلى مقومات شخصيته تبعاً لاختلاف نماذجها وحجومها فالطفل الذي ينشأ في عائلة صغيرة يختلف في مبلغ تأثره بظروف الجماعة عن الطفل الذي ينشأ في عائلة كبيرة. وهذا وذلك يختلفان عن الطفل الذي ينشأ في ملجأ أيتام. وأكثر من هذا؛ فإن جميع هؤلاء يتصرفون في منازلهم تصرفات مغايرة لمظاهر سلوكهم في المدرسة ويختلف هذا السلوك المدرسي كذلك عن سلوكهم في ساحة كرة القدم أو في رحلة ترفيهية. وهذا يدلنا على أن معرفة الانواع المختلفة للجماعات والعمليات الاجتماعية التي تبدو واضحة في كل نموذج اجتماعي، هذه المعرفة ضرورية جداً للوقوف على فهم كامل للتجارب الانسانية ولتحديد الدور الذي تقوم به البيئة الاجتماعية في تكوين الشخصية.

ويختلف التراث الاجتماعي كذلك باختلاف الزمان والمكان بالرغم من تشابه البيئات الطبيعية والظروف الجغرافية. فالبيئة الطبيعية لحوض الميسيسيبي مثلاً هي في القرن العشرين كما كانت في القرن السابع عشر. بيد أن الاطفال الذين نشأوا في هذين القرنين مختلفون تمام الاختلاف من الناحية الاجتماعية.

ففي القرن السابع عشر كانت وظيفة الجماعة هي تعليم الطفل القنص والصيد وجمع الثمار والاعشاب وحمل الاثقال وكانت تعلمه الاعتقاد في القوى الخارقة.

وما كان مثل هذا الطفل ليعرف القراءة والكتابة والالعب الرياضية ولا يمارس أي مظهر من مظاهر الفنون. أما طفل القرن العشرين؛ فقد نشأ يتكلم الانكليزية ويتعلم قراءة آدابها ويدين بالمسيحية. ويكاد لا يعرف شيئاً عن جمع الثمار وقطع الاخشاب وحمل الاثقال، بينما يعرف الشيء الكثير عن الموسيقى والغناء والرقص والسينما وما إليها. فشتان إذن بين ثقافة الجيلين بالرغم من أن البيئة الطبيعية واحدة ولم يطرأ عليها تغيير يذكر. ونلاحظ كذلك أن الطفل الذي ينشأ في منطقة "الاسكا" يشبه في لغته ودينه ومظاهر سلوكه وعاداته الطفل الذي ينشأ في جنوب "فلوريدا" بالرغم من اختلاف البيئتين وإختلاف ظروفهما المناخية وذلك لأن التراث الاجتماعي في المنطقتين يكاد يون واحداً في خطوطه الرئيسية ومقوماته العامة. وهذا يدلنا على أن التراث الاجتماعي يكاد يكون العامل الفعال في تكييف حياة الأفراد؛ وأن ما يقال عن آثار البيئة الطبيعية والظروف الجغرافية والاصول الانتلوجية والوراثية يتضاءل إلى حد كبير إذ قيس بمبلغ ما تقرضه الجماعة على أفرادها.

ويشعر الفرد بقوة هذا التراث الاجتماعي عندما ينتقل من وسط ثقافي إلى وسط آخر يخالف الوسط الاول. ففي هذه الحالة يصبح الفرد مركزاً لصراع عنيف بين مظاهر الثقافتين. وقد يحدث ألا يحتمل الفرد الصمود أمام هذا الصراع فيفر إلى وسطه الاول ويقنع من الهزيمة بالإياب، وقد يقوى الفرد على احتمال ما يتطلبه الصراع من المغالبة والصبر يحاول أن يكيف نفسه وفق ظروف الوسط الاجتماعي الجديد وما يتمثل مظاهر ثقافته؛ ويستسيغ قوالبه وأوضاعه. ومتى تم له هذا التكيف الثقافي acculturation تهدأ حالته النفسية؛ ويستطيع أن يعيش في

وئام بين أحضان البيئة الجديدة. ويقاس حرص الفرد على تراثه الثقافي الاول باعتبارات كثيرة منها: قوة هذا التراث في ذاته؛ ومبلغ تأصله في تكوين الفرد؛ ثم لعامل الزمن أثر لا يخفى. فكلما طالت مدة إقامة الفرد في الوسط الجديد؛ زاد تكيفه بأنماطه الثقافية وزاد تمثله للنظم والاضاع الجديدة؛ ومن ثم ترسب في شخصيته مع الانماط الاولى جنباً إلى جنب؛ ولا تزال كذلك حتى تغطي عليها تحل محلها. فعامل الزمن له اعتباره في التكيف الثقافي وفي انتقال الفرد من نموذج اجتماعي إلى آخر.

هذا؛ ويختلف التراث الاجتماعي من حيث البساطة والتعقيد باختلاف كل بيئة أو نموذج اجتماعي؛ وذلك تبعاً لطبيعة البيئة وحجمها وتركيبها الطبقي؛ ونموها السكاني؛ وما يكتنفها من ظروف وتستهدف له من تجارب؛ ومبلغ ما قطعت من تطور حضاري. ولذلك فإنه من الصعب دراسة التراث الاجتماعي إلا بالنسبة لبيئة معينة محدودة أو بالنسبة لنموذج اجتماعي واحد (مجموعة متحدة من البيئات تتشابه في مقوماتها الاساسية وظروفها الخاصة).

عناصر التراث الاجتماعي

١- اللغة

تعتبر اللغة حجر الزاوية في كل تراث اجتماعي وثقافي؛ لأنها الوسيلة الاولى للتخاطب والتفاعم وتبادل الآراء والإتفاق على أساليب العمل والتفكير؛ وبدونها يتعذر الاجتماع الانساني. وقد اختلفت الطبيعة الانسان بالنطق واللغة لأنه يمتاز عن سائر الكائنات الحية بالتعبير عن الاحساسات التي تخالجه.

وإذا كانت الحيوانات تصدر بعض الاصوات الدالة على اللذة والالم والفرد والحزن؛ غير أن مثل هذه الاصوات لا تعتبر من اللغة في شيء فضلاً عن أنها

صادرة بصفة غريزية أما الانسان فهو وحدة الذي يدرك الخير والشر والعدل والظلم. وهذه الامور وما إليها لا يمكن أن تقوم إلى في وسط جمعي.

وتقوم الاسرة بأول وظيفة تربوية لها وهي تعليم الطفل لغته؛ لأن الطفل في نشأته الاولى لا يعرف من أمر اللغة شيئاً ولا يكاد ينطق إلا بأصوات تشبه أصوات الحيوان والطيور. ثم تأخذ هذه الاصوات في التمييز تبعاً لتطور أعضاء نطقه والاجهزة التي تصدر عنها الاصوات. فتصبح أصواته ذات مقاطع وتظهر لديه وسائل التعبير الفطري عن طريق الاشارة. ويبدأ الطفل في إجراك العبارات والكلمات التي ينطق بها المحيطون به بدون أن يستطيع محاكاتها. ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يجيب إجابات صحيحة بحركات يده وبالاشارة تدل على أنه يفهم ما يسمعه ويترجم عن العبارات والكلمات بلغة الاشارة. وبعد ذلك يبدأ الطفل في مرحلة التقليد اللغوي، فيقلد والديه وكل من يتصل به. وقد يخترع في هذا الدور بعض الكلمات التي تعينه على التفاهم مع الاخرين. والواقع أنه لا يخترعها من عنده؛ ولكنها في أغلب الظن كلمات سبق أن قيلت أمامه فيقلدها مع تحريفها بما يناسب قوة نطقه ومدى فهمه. ولا يقتصر الطفل على تقليد الكلمات والجمل التي تقال أمامه؛ بل يحاكي كذلك من تلقاء نفسه الكلمات التي يرددتها المحيطون به في أحاديثهم الخاصة. ويحرص الطفل في حياته الاولى كل الحرص على ما يحصل عليه من مفردات إلى حد أنه تغنى بها في ألعابه وخلوته. ونظراً لمهارة الطفل في التقليد اللغوي؛ فإنه يستطيع أن يستوعب معظم مفردات لغته لاسيما الدارج منها؛ فإنه كذلك أن يتعلم أية لغم أجنبية في سهولة ويسر. بل ويستطيع فضلاً عن ذلك؛ إذ اتيح له بصفة دائمة سماع أكثر من لغة أجنبية؛ أن يتعلمها جميعاً ويصل في إجادتها مبلغ إجادته للغته الاصلية. وهذا يفسر لنا كيف يستطيع الطفل أن يتكلم مع مربيته بلغتها ومع رفاقه بلغته الاصلية وفي مدرسته بلغة ثالثة تختلف عن كليهما. وكثير من الاطفال والرجال يتكلمون لغات متعددة ويحدقونها

بقوة متعادلة وهذه الظاهرة تفيدهم فائدة محققة في حياتهم العملية وفي تحصيل مختلف المعارف والعلوم وتسهل عليهم الرجوع إلى مصادرها الأساسية وباللغات الأجنبية التي كتبت بها.

وبجانب الأسرة تقوم المدرسة بوظيفة أساسية في نقل التراث الاجتماعي عن طريق اللغة وعن طريق نظمها وأساليبها والأوامر التي تفرضها على النشء. وهي تتم عمل الوالدين في تقويم لسان الطفل وتلقيه أصول اللغة وقواعدها من الناحية الفنية وتزويده بطائفة من المعاني والمصطلحات مع تحديد مفاهيمها ومدركاتها.

ومتى تمكن الفرد من لغته سار في ركاب المجتمع ودخل مع مواطنيه في علاقات اجتماعية مباشرة وغير مباشرة. فلا غزو أن تكون اللغة هي عربة الوحي الجمعي؛ وهي أول وسيلة من وسائل المواصلات إعتد عليها المجتمع في نقل تراثه الثقافي والاجتماعي بصفة عامة.

وكما تؤثر اللغة في حضارة الأمة ومظاهر ثقافتها فهي بدورها تتأثر بحضارة البيئة ونظمها وتقاليدها وعقائدها واتجاهاتها العقلية ودرجة ثقافتها وأحوال البيئة الجغرافية والمناخية وشؤونها الاجتماعية الأخرى. والملاحظ أن كل تطور يصيب أية ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية إنما يتردد صداه في اللغة باعتبار أنها أداة التعبير وعربة الوعي الجمعي. ولذلك تعتبر اللغة مرآة صادقة تعكس لنا التاريخ الاجتماعي؛ وهي أصدق سجل يعبر عن هذا التاريخ. وكلما اتسعت حضارة الأمة وتعددت مظاهرها وسما تفكيرها؛ نهضت اللغة وتعددت فنونها (من شعر ونثر وقصة ومسرحية وما إليها) ودقت مفرداتها وكثرة المصطلحات الفنية فيها. ولذلك نجد أن لغة الأمة التي تجمع في شئونها بين الزراعة والصناعة أغزر ثروة من لغة البلاد الزراعية أو القبائل الرعوية. ونجد أن لغة الأمة الناهضة سياسياً واقتصادياً وعلمياً أدق وأرقى وأغزر من لغة البلاد

المتخلفة ثقافياً. ونلاحظ في البلاد الناهضة وجود اللهجات المحلية واللغات الطبقية التي تصور لنا نظام الطبقات في المجتمع (طبقة الارستقراط؛ طبقة العامة؛ لغة الصناعة والعمل) وتصور اللغة فوق ذلك خصائص الامة العقلية ومستوى تفكيرها ومناهجها في الدراسة والبحث. فنجد مثلاً أن لغات القبائل البدائية أو المتخلفة منحطة في تراكيبها ويكثر فيها الخلط واللبس والإبهام؛ وتكثر فيها الالفاظ الدالة على الامور الجزئية التي تتعلق بأمر الحياة العامة وضرورياتها، ومثل هذه اللغات ساذجة الدلالة ضحلة المعاني قليلة الروابط وقصيرة العبارات.

أما اللغات العربية والهند اورية؛ وتتنوع فيها دلالات الالفاظ؛ وتطول العبارات وتدق المفاهيم وتغزر الثروة اللغوية على العموم - هذه الامثلة وما إليها تدلنا على شدة التفاعل بين اللغة وبين مختلف وجوه التراث الاجتماعي وعلى توثق الروابط والصلات بينها وبين مظاهر نشاط الجماعة؛ وعلى أنها المرآة الصادقة التي تعكس لنا تاريخ المجتمع ومراحل تطوره.

٢- العادات

يخضع الفرد لنوعين من العادات: فردية وجماعية. والعادات الجماعية عبارة عن مجموعة من الافعال والاعمال وألوان من السلوك تنشأ في قلب الجماعة بصفة تلقائية لتحقيق أغراض تتعلق بمظاهر سلوكها وأوضاعها. هي تمثل ضرورة اجتماعية وتستمد قوتها من هذه الضرورة؛ ولذلك لا يملك الافراد الخروج على مقتضياتها والتزاماتها. وتتمثل هذه العادات في آداب المائدة وآداب الحديث وقواعد السلوك العام واستقبال الغرباء وزيارة المقابر يوم الجمعة عند المسلمين ولبس الملابس الجديدة في أيام الاعياد والتوسعة على الاطفال في هذه الايام (ما يعرف باسم العدية). هذه الامور وما إليها عبارة عن عادات لا يرى الافراد بدأً من الخضوع لها ويرون أنفسهم مناسقين إلى الأخذ بها

بدون أن يفرض عليهم ذلك. لأنهم يشعرون أنها أصبحت جزءاً من طبيعتهم ومن تكوينهم فيخضعون لها خضوعاً آلياً. وتصدر عنهم هذه الأفعال بصفة طبيعية لأنها أصبحت طبيعية ثانية (وفقاً للقضية المشهورة العادة طبيعة ثانية).

وبعض العادات مفيد ونافع للحياة الاجتماعية ويؤدي إلى تعزيز وحدة المجتمع وتقوية الروابط بين أفرادها والتجانس في تصرفاتهم. وتتمثل هذه العادات السوية في آداب السلوك العام وآداب الحديث وآداب المائدة والتعاطف وصلات ذوي القربى. وبعض العادات شاذ وضار ويمثل حالات مرضية تتتاب المجتمع. ويعمل على تعويق نهوضه ويشيع الفرقة بين أفرادها وهي عادات تنتشر على نطاق واسع بين بعض الطبقات وتتمثل في زيادة الاضرحة والمقابر؛ وأكل ألوان معينة من الطعام في الحدائق العامة أيام شم النسيم؛ وتهريج العوام في مناسبات الاعياد؛ وتعاطي المخدرات والخمور في حلقات جماعية؛ والتداوي بالسحر والرقى وما إلى ذلك.

والعادات جزء هام أو فصل هام في دستور الأمة غير المكتوب. بيد أنها مدونة في صدور الافراد وراسبة في تكوينهم وتمثل دعامة جوهرية من دعائم تراثهم الاجتماعي. وهذا التاريخ الطويل الشاق يضيف على العادات قدراً من التقديس والاحترام؛ ويؤكد ثباتها واستقرارها؛ ويوسع نطاق عموميتها وإنتشارها بين سائر أفراد المجتمع. ولذلك لا تقتصر العادة على طائفة معينة أو طبقة خاصة شأن التقاليد أو العرف؛ ولكنها تمتاز بالعمومية والانتشار على أوسع نطاق داخل البيئة الاجتماعية. وهذه الامور وما إليها تفسر لنا سر تعقل الافراد بها وخضوعهم لما تفرضه عليهم.

هذا؛ وليس معنى جبرية العادات أنها تفرض نفسها فرضاً؛ وأن الانسان لايملك حيالها تغييراً وتديلاً. فالحق أن الانسان يمكنه أن يحور فيها ويغير في الحدود التي تجيزها وفقاً لثقافته ومبلغ تطوره وتطور بيئته الخاصة. ولا يعتبر

ذلك خرقاً من المجتمع وأوضاعه؛ لأن العادات شأنها في ذلك شأن ما عداها من مظاهر التراث الاجتماعي لابد أن تساير التطور وتخرج عن صورها الجامدة وتستجيب مع الاوضاع المستحدثة حتى نستطيع أن نقرأ فيها صورة لحياة الافراد ومظاهر سلوكهم ومبلغ تطور تصرفاتهم بصدد المسائل الشعبية الدارجة. وبالرغم من أن العادات في معظم الشعوب توصف بالجمود وعدم القابلية للتطور؛ فإن هناك عوامل كثيرة خرجت بها عن قوالبها القديمة وصورها الجامدة ودفعت بها إلى التطور. وأهم هذه العوامل ما يأتي:

١- انتقال الاشكال الاجتماعية من البساطة إلى التعقيد. ويبدو هذا الانتقال في مظهرين: المظهر المرفولوجي أي زيادة حجوم البيئات الاجتماعية والمظهر الديموجرافي أي زيادة السكان ونمو درجة كثافتهم.

٢- تطور نظام الاسرة من حيث الوظيفة ومن حيث النطاق. فمن الناحية الاولى نجد أن الاسرة الحديثة قد تنازلت عن معظم وظائفها القديمة للهيئات الاجتماعية (وظيفة القضاء؛ الانتاج؛ التربية والتعليم؛ التطب) وبذلك زالت طائفة غير يسيرة من العادات التي كانت تلازم هذه الوظائف. ومن الناحية الثانية نجد أن الاسرة الحديثة أصبحت ضيقة النطاق لاتكاد تشمل إلا الاب والام والاولاد المباشرين؛ وذلك زالت العادات القبلية؛ وزالت رقابة العشائر والبطون على أفرادها؛ وشعر هؤلاء بشيء من التحرر في أساليب حياتهم وفيما يصطلحون عليه من أوضاع.

٣- زيادة موجات الهجرة الخارجية. فقد كان لهذا العامل أثر مباشرة وخطير في القضاء على أشكال اجتماعية برمتها وقيام نماذج جديدة كما حدث في أمريكا. حيث قضى المهاجرون على الاشكال الاجتماعية البدائية التي كانت تعيش في ظلها جماعات الهنود الحمر. وأقاموا نظماً تشبه النظم الاوربية التي كانوا يعيشون تحت لوائها في بلادهم الاصلية. ولا نقل الهجرة

الداخلية كذلك عن الهجرة الخارجية في مبلغ تأثيرها على العادات فهجرة أهالي الصعيد من بلادهم إلى القاهرة والاسكندرية كان له أثره في تطور العادات الصعيدية الجافة؛ وكان لهجرة أهالي الريف إلى المدن أثر واضح في تطور العادة الريفية وفي زوال كثير من خشونتها وبدوتها.

٤- تقدم وسائل المواصلات وما كان له من أثر عميق في احتكاك عادات شعوب مختلفة في ثقافتها ومظاهر حضارتها وطرق حياتها. فقد أدى الاحتكاك المادي والفكري إلى تفاعل بين مختلف العادات وإلى تطور خطير فيما تنطوي عليه من أوضاع وقوالب ومفاهيم.

٥- استحداث أساليب جديدة في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية واستخدام المخترعات والاجهزة الحديثة؛ والانتفاع بثمرات الحضارة في الارتقاء بشؤون الحياة الفردية والاجتماعية. هذا إلى اتساع نطاق الثقافة وانتشار اساليب الاذاعة والنشر والترشيد والعرف؛ والارتقاء بمظاهر السلوك الفردي والاجتماعي.

هذا؛ ويلاحظ أن تطور العادات في ضوء الاعتبارات التي أشرنا إليها أدى إلى ضعف هيبتها وضياح حلالها وقدسيتها التقليدية إلى حد ما. فلم يعد الافراد في الوقت الحاضر يحفظون لها في قلوبهم ما كان يحفظه السلف من التقدير والاحترام لاسيما هؤلاء الذين يعيشون في بيئات متحررة أو في مجتمعات أكثر تطوراً. غير أن هذا لا يعني أن العادات قد فقدت كل مظاهر السيادة على الافراد؛ فلا يزال هناك قدر منها يمس النواحي الهامة الدقيقة التي تمتاز بمبلغ حساسيتها الاجتماعية. وهذا لا يمكن أن يغالبه التطور أو تقهره الحرية. ولذلك لا يتهاون المجتمع بصدده ولا بد أن يقابل الشخص المتبرم بهذه العادات الهامة بمقاومة وعنف تعيد إلى الازهان مبلغ ما تنطوي عليه العادات الاجتماعية من سيادة وسلطان.

٣- العرف

العرف عبارة عن طائفة من الافكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ في جو الجماعة وتتعكس فيما يزاوله الافراد من أعمال وما يلجأون إليه في كثير من مظاهر سلوكهم الجمعي ويضطر الافراد إلى الخضوع لهذه المعتقدات لأنها تستمد قوتها من فكر الجماعة وعقائدها. فلا يملكون الخروج على ما ترسمه لهم إلا في أضيق الحدود؛ ولايستطيعون أن يعزلوا أنفسهم عن الأخذ بها أو التفكير في ضوء ما توحى به. ولذلك نجد أن معظم الافراد منساقين إلى السير في ركاب العرف ومن يحاول أن يتصدى لما يفرضه من مظاهر السلوك أو من المعتقدات والآراء يقابل من الجماعة. ولا أدل على ذلك من أن الانسان لايستطيع أن يقدم دليلاً مقبولاً ومعقولاً عن الاعمال أو الآراء التي يأخذ بها ويتصرف في ضوء ما تمليه عليه سوى ترديد القضية الشعبية المتوترة وهي "لقد جرى العرف على ذلك".

ويتمثل العرف في تحريم بعض الاعمال لارتباطها بقوى مؤثرة في طبيعة الحوادث مثل عدم كنس المنازل ليلاً وعدم كنسها يوم سفر صاحبها ظناً منهم أن هذه الامور تجلب التعاسة وتسبب حوادث مؤلمة؛ ومثل التشاؤم من سماع نعيق البوم وعدم التفكير في اقتنائها؛ وعدم لمس المحرمات؛ وعدم ذبح بعض الحيوانات؛ وعدم أكل لحوم بعض الطيور لارتباطها بأصول قدسية أو لارتباطها بأفكار وتصورات خارقة. فأمريكا مثلاً لا تأكل لحول الخيل بينما يأكلها الاوربيون؛ وأهل الصين لا يأكلون منتجات الابقار بينما يأكلها المصريون؛ وهنود البرازيل يأكلون أنواعاً من النمل والحشرات بينما لا يأكلها الاوربيون ومن إليهم؛ والعشائر البدائية تحرم أكل لحوم توائمها بينما تعتبر هذه التوائم من أهم أنواع الغذاء الحيواني عند غيرهم من الشعوب. ومثل الاعتقاد في التأثير الخارجي للشياطين والارواح الخبيثة وأثر هذه الآراء في أعمال الافراد. فالفلاح المصري لا بد أن يتصدق ببواكير الحبوب والثمار خشية أن تتنكر له أرواح النباتات؛

والرجل الساذج يخشى المبيت في منزل مهجور أو مكان منعزل خشية أن تصيبه الارواح الحبيسة بأذى؛ والرجل الساذج يعتقد في قوة الدم الحيواني ومبلغ تأثيره في شفاء الامراض أكثر من اعتقاده في الطبيب وفي الادوية والعقاقير.

ويتمثل العرف كذلك في الحكم والامثال والالغاني الشعبية والقصص الادبية التي تعتبر مظهراً من مظاهر التراث الثقافي والتي تصور لنا التاريخ الادبي واللغوي وتلقى ضوءاً على التاريخ القومي. وقد يظن البعض أن هذه الامور وما إليها خارجة بطبيعتها عن أوضاع العرف والمعتقدات الشعبية. بيد أن لهذه الحكم والامثال نوعاً من السلطة الأدبية. وهذه السلطة مستمدة من فكر الجماعة ومن منطق العقل الجمعي. ولذلك نرى أن الافراد يستشهدون بها في كتاباتهم وأحاديثهم؛ ويدعمون بها آراءهم وحججهم؛ ويعتمدون عليها في تبرير كثير من أعمالهم. وترتبط هذه الالوان الادبية بمختلف مظاهر النشاط الاجتماعي فمنها: ما يتصل بالنواحي السياسية والاقتصادية ومنها ما يتصل بالنواحي الاخلاقية والانسانية والاسرية. ومن الممكن الوصول إلى الاساس الذي تركز عليه كل طائفة من الحكم والامثال التي جرى العرف على الأخذ بها؛ وذلك بعد دراستها وتحليلها ومعرفة أصولها الاولى والحوادث التاريخية التي ارتبطت بها.

والعرف وما يتصل به من العقائد الشعبية وأفكار العامة يعتبر أهم جزء من دستور الامة غير المكتوب. وقد ترقى بعض أحكامه وقضاياها إلى درجة القواعد القانونية. وهو يختلف عن العادات في نقطة أساسية وهي ارتباطه بالناحية العقيدية أما العادات فهي في معظمها أفعال وأعمال... ويخضع العرف للتطور شأنه في ذلك شأن العادات. فهو لايجد على أوضاع معينة ولكنه يتزحزح إلى حد ما عن صورته الاولى وأشكاله القديمة غير أن تطوره بطيء وشاق وفي حدود ضيقة ويقابل من جمهور العاوم بغضب شديد. فكل تطور يصيب قواعد العرف المألوفة؛ وكل عمل تقدمي يتعارض مع العقائد الشعبية الدارجة لا بد أن يقابل في أول الامر

بقوة وعنف وعدم ارتياح؛ حتى يتمثلة الافراد في تفكيرهم ومشاعرهم وتستسيغهم عقولهم. فيصبح نمطاً أو نموذجاً مضافاً إلى القواعد القديمة. ومن الملاحظ أن الاوضاع (الانماط) الجديدة تسير إلى حد ما قواعد العرف القديم حتى تنتصر عليها وتحل محله. هذا؛ ويجدر الاشارة إلى أن العوامل التي سبق أذ كرناها بصدد تطور العادات؛ كان لها أكبر الفضل كذلك بصدد تطور العرف والتقاليد فيجدر الرجوع إليها.

٤ - التقاليد

التقاليد عبارة عن طائفة من قواعد السلوك الخاصة بطبقة معينة أو طائفة أو بيئة محلية محدودة النطاق. وهي تنشأ من الرضى والاتفاق الجمعي على اجراءات وأوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الذي تنشأ فيه. ولذلك فهي تستمد قوتها من قوة المجتمع (الطبقة أو الهيئة) الذي إصطلح عليها وتفرض سلطتها على الافراد بإسمه. فالتقاليد؛ شأنها شأن العادات والعرف؛ عبارة عن مصطلحات اجتماعية مزودة بصفة الجبر والالزام. وهي فوق ذلك صفة مميزة للطبقة التي تأخذ بها؛ واحترامها علامة مؤكدة على مبلغ تضامن هذه الطبقة وحرصها على تحقيق قوتها الذاتية. ومن التقاليد ما يتصل بالمقومات الاساسية للجماعة؛ ومنها ما يتصل بالاحوال العادية ومسائل الروتين في حياة المجتمع. وتتمثل التقاليد الهامة في الأخذ بالثأر وهو تقليد تسير عليه بعض القبائل والعصبيات؛ وفي عقد المجالس العرفية لفض المنازعات. وأحكام هذه المجالس في نظرهم أقوى وأسهل تنفيذاً من أحكام السلطات المركزية. ومن تقاليد القبائل العربية المستقرة في مصر عدم تزويج بناتها من أبناء الفلاحين لعدم توفر شرط الكفاءة (في نظرهم) والعائلة التي تخالف هذا التقليد ترمي بالتحقير وتتخذ ضدها اجراءات خطيرة. ومن التقاليد السائدة عند بعض الطبقات المسائل المتعلقة بالنقوط

في مناسبات الزواج، والختان والوفاة. ومما يدل على مبلغ قوة هذا التقليد أن المحاكم أصدرت كثيراً من الأحكام التي تقضى بضرورة رد "قيم النقوط" إلى أصحابها وفقاً للتقاليد الموروثة. ومن هذا القبيل أيضاً التقاليد المصطلح عليها بين أعضاء الهيئات والجمعيات والمؤسسات والمنظمات. فالمتبع عند تعيين عضو جديد بالمجمع اللغوي مثلاً أن تقام حفلة استقبال للتعارف بينه وبين الأعضاء القدامى والمتبع كذلك عند وفاة أحد الأعضاء إقامة حفلات تأبين لتعداد مناقبه ومآثره. ومن هذا القبيل كذلك التقاليد المرعية في حفلات الزفاف والختان ومراسيم الوفاة وما إليها.

هذا؛ وينبغي الإشارة إلى أن كثيراً من المفكرين لا يفرقون بين العادات والعرف والتقاليد باعتبار أنها جميعاً تعبر عن مظاهر السلوك وأساليب العامة في التفكير والعمل؛ بيد أنهم متفقون جميعاً على أن هذه الأمور هي الأصول التي استمدت منها النظم والقوانين مادتها؛ وهي الدعائم الأولى التي قام عليها التراث في كل بيئة اجتماعية؛ وهي فوق القوى الموجهة والمؤثرة في أعمال الأفراد.

وقد حلل العلامة (فاكسويلر waxweiler) العادات والتقاليد وأرجعها إلى أصولها الأولى وصور المراحل التي قطعتها في تطورها. فذهب إلى القول بأنه تنشأ في كل جماعة طائفة من الأفعال والإجراءات التي يزاولها الأفراد لتنظيم أحوالهم والتعبير عن أفكارهم وما يجول في مشاعرهم ولتحقيق الغايات التي يسعون إليها والملاحظ أنهم يكررون أفضل هذه الأفعال وأكثرها تحقيقاً لأغراضهم وبفضل هذا التكرار تصبح الأعمال والأفعال "عادات" وعندما ترسب هذه العادات في عقل الجماعة وشعور الأفراد تصبح "قواعد قانونية". ومجموع هذه القواعد التي ترتبط بمظهر واحد من مظاهر النشاط الاجتماعي يكون "النظم" ومجموع هذه النظم يكون "التنظيم الاجتماعي" الذي يركز عليه استقرار المجتمع.

٥- التراث الثقافي

تعتبر الثقافة عنصراً هاماً من عناصر التراث الاجتماعي. وتشمل الثقافة فيما تشمله ما يتلقاه الفرد عن الجماعة من مظاهر الفنون والعلوم والمعارف والفلسفة والعقائد وما إليها. ويرجع إلى هذا التراث الفضل فيما وصل إليه الافراد من مستوى اجتماعي وحضاري. وفي هذا الصدد يقول العلامة "تيلر Tylor" أن الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي ينطوي على العرفة والعقائد والفن والاخلاق والقانون والعرف والعادات وغير ذلك من القدرات التي حصل Redfield، الثقافة هي مجموعة المفاهيم والمدرجات المصطلح عليها في المجتمع وهي تتعكس في الفن والفكر والاعمال وتنتقل عن طريق الوراثة والتقليد عبر الاجيال فتكسب الجماعة صفات وخواص مميزة.

ويشمل التراث الثقافي أموراً معنوية وأخرى مادية. ولا تقل إحداها أهمية عن الاخرى. ويقتصر بعض المفكرين كلمة "ثقافة" على الامور المعنوية؛ وكلمة "حضارة" على المسائل المتعلقة بالناحية المادية في المجتمع وهي التي تتمثل في المخترعات والابتكارات والتنظيمات التي يلجأ إليها الانسان لدعم كيانه الاجتماعي وتحقيق أهدافه في سهولة ويسر. ففي نظرهم كل ما يسود المجتمع من الآراء والمعتقدات والمعارف والنظريات وما يستحدثه من مظاهر الفن يسمى ثقافة؛ وكل ما يطرأ على حياة المجتمع من تطور مادي في شئون الصناعة والتجارة والكشف والاختراع يسمى حضارة. وذلك مثل قيام النظم الاجتماعية التي أدت إلى استقرار الحياة؛ ونشأة المدن؛ وقيام الهيئات والمؤسسات؛ والمخترعات الحديثة (كالسيارة؛ والطائرة؛ والراديو؛ والتلفزيون) وما إليها من الوسائل التي تحقق سعادة الانسان ورفاهيته. والواقع أن هذه التفرقة بين الثقافة والحضارة لا تقوم على أساس سليم. لأن المظاهر الثقافية المادية والمعنوية تتضافر جميعاً في خلق النظم والتنظيمات الاجتماعية التي "تعتبر قلب الثقافة ولبناتها". هذا، إلى أن هناك تجاوباً بين

الناحيتين الروحية والمادية في المجتمع. فالقطعة الموسيقية أو اللوحة الزيتية أو القصيدة الأدبية أو النظرية الفلسفية؛ وهي كلها من مظاهر التراث الثقافي؛ ليست لها قيمة في ذاتها مالم تحقق مطالب اجتماعية ومالم تعبر عن مشاعر وأحاسيس اجتماعية وتترجم عن رغبات وأمان جمعية. والعلم نفسه يفقد في نظري قيمته الموضوعية مالم يرتبط بعقل الجماعة ويؤدي وظيفة اجتماعية. لأن هذه الأمور لاتعتبر غاية في ذاتها؛ ولا تطلب لأغراض خاصة في طبيعتها. أنها من وحي المجتمع ومن خلقه وتتعكس فيها أضواؤه واتجاهاته، وما يقال عن هذه المظاهر الروحية والمعنوية يقال كذلك عن المظاهر المادية الصناعية. فالسيارة والراديو والتلفزيون وما إليها كانت قبل خروجها إلى ميدان التطبيق العملي؛ أفكاراً ونظريات تعبر عن الحاجة الاجتماعية إليها؛ ومبلغ الضرورة التي توحى بها.

ويبدو لي أن السبب في هذه التفرقة يرجع إلى اللبس والغموض اللغوي فكلمة ثقافة تستعمل استعمالاً دارجاً للتعبير عن الدراسات الأدبية والنظرية والعقلية والفلسفية؛ أدى أنها تنظوي على كل الأمور المعنوية والروحية. وكلمة حضارة تستعمل بصفة عامة للدلالة على الوسائل التي بفضلها وصلت الإنسانية إلى التمدن والتحضر. فالنظم الاجتماعية والقوانين والعلوم والمعارف ووسائل الكشف العلمي والمخترعات وما إليها من الأمور التي ابتدعها الإنسان في تطوره وفي ارتقائه مدارج الحضارة؛ كلها مظاهر حضارية. ولذلك ارتبطت الثقافة بالناحية المعنوية والروحية؛ وارتبطت الحضارة بالمسائل المادية التي أدت إلى التمدن وإلى الاستقرار والرفاهية العامة.

وفي ضوء هذه المفاهيم تعتبر الحضارة هي التطبيق المادي للتراث الثقافي؛ وهي وليدة هذا التراث في البيئة التي تقوم فيها؛ وهي المرآة التي تعكس لنا مقومات ثقافة المجتمع وخصائصها العامة. غير أنه ينبغي ألا نوسع من الهوة التي تفصل بين اللفظين. وعندي أنه لاضير؛ في ميدان الدراسات الاجتماعية؛ إذا

أطلقنا لفظي "ثقافة وحضارة" على مفهومات واحدة. فليس ثمة خطأ إذا قلنا "التراث الحضاري" بدلاً من "التراث الثقافي"، و"الانماط الحضارية" بدلاً من "الانماط الثقافية" وذلك بدون تحديد فني بين اللفظين وبدون وضع خط نظري يفصل بين الناحيتين المعنوية والمادية في الانتاج الثقافي.

هذا؛ ويمتاز التراث الحضاري المعاصر بسرعة الذبوع والانتشار نظراً لوجود العوامل المواتية لتحقيق ذلك. فقد ارتقت وسائل المواصلات المادية التي يسرت دورها حركة المواصلات الفكرية والروحية بين شعوب المعمورة وربطت بين أهدافها؛ وقربت بين وجهات النظر في معظمها. فساد التفاهم وتحققت المصالح المشتركة وتبادلت الشعوب المنافع العامة والمخترعات الحديثة ومن أهم هذه الوسائل انتشار الصحافة والكتف العلمية؛ واتساع نطاق الاذاعات اللاسلكية عن طريق الراديو والتلفزيون؛ وارتقاء فن السينما والمسرح وتبادل الخبرات والبعثات. هذا، إلى جانب ما تؤديه وسائل المواصلات الاخرى (مثل القاطرات والسفن والطائرات) من خدمات جلييلة في هذا الصدد.